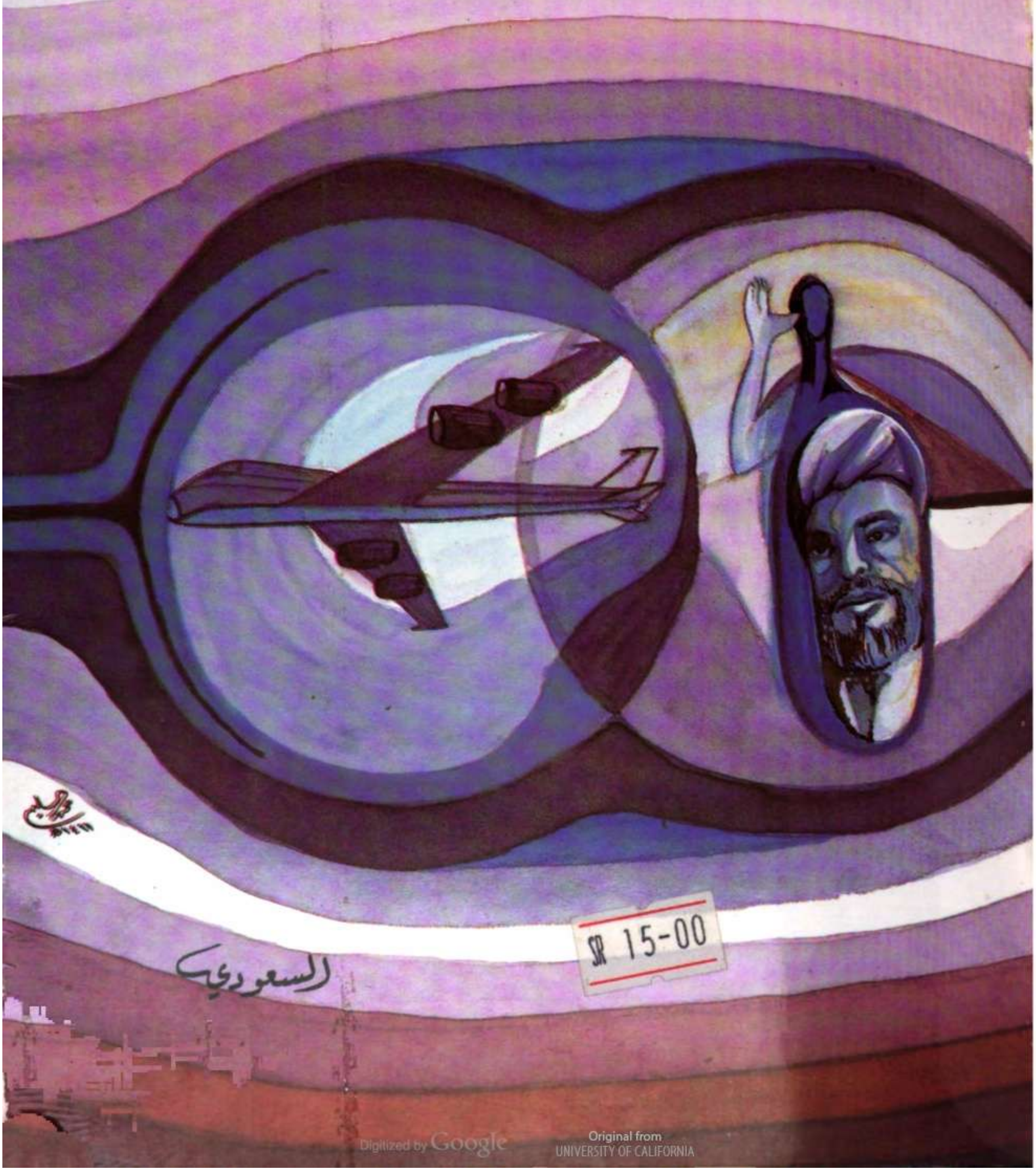
شكرًا.... أبا الطيّب



السعودي

شكراً .. أبا الطيّب

السعودي

الرياض - العليا - شارع التخصصي
هاتف: ٤٦٥٦٦٣٦ - ٤٦٤٥٣٧٨
ص.ب ٨٢٣٦ - الرياض ١١٤٨٢

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ

صدر الإذن بطبع هذا الكتاب من وزارة الاعلام المديرية العامة
للمطبوعات برقم ٧٦٦١/م وتاريخ ١٤١١/١١/٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مـقـدمـة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

عزيــزي القــارىء ...

أضـع بين أيـديكم باكورة انتاجي في أول تجربة لي في مجال الكتابة، وان كانت سبقتها الى الوجود بعض المقالات الصحفية المتناثرة.

والله أسأل أن تنال اعجابكم وتحوز على استحسانكم وتقديركم، والحق أقول انها قصة عشتها في احدى أسفاري، وقد انفقت اياماً بل وشهوراً في كتابة ومراجعة هذا الكتيب، فليست الكتابة مهنتي، ولعل هذا هو السبب الأول في تأخر ظهور هذا الكتيب، وان كان أهل الأدب والمشتغلون به ليخرجونه في بضعة أيام.

وقد ابتعدت فيه عن التكلف والصنعة حتى ليكاد يخلو منهما، فعدتى كانت الملكة والسليقة وحبي للكتاب والكتابة.

والآن أتركـكم لتقولوا رأيكم وكلمتكم التي انتظرها حتى تكون لي دافعاً نحو غد أفضل في هذا المجال ... وأكرر لا تنسوا أنها التجربة الأولى.

السعودي

إهــــداء

إلى من جعلني أخوض تجربة الكتابــة
إلى الأديب الشاعــر
والمقاتل الشــرس
والمعلم الفــذ
والسياسي المحنــك
إلى أنيسي في السفر
فمن صحبة إلى صحبة
ومن حظوة إلى حظوة
ومن حكمة إلى حكمة
ومن مجــد إلى مجــد
إلى من لم يتسع له مكان يستقر فيه غير جوف الأرض
إلى سيد الشعر ومليك القوافي
الذي مدح، فأحسن إلى الشعر بمدحــه
وهجــا، فأدب
ووصف فأعجب ... وأطرب
ورثى فأوجع ... وأفجع
إلى شاغل الناس ... إلى أبى الطيب

في ليلة ربيعية عطرة يحمل فيها النسيم أريج الشرق وعبق سحره، وقد بقى لسؤال ساعات قلائل و ينقضي، وفي انتظار قدوم البشير ليهنىء بميلاد هلال شهر جديد، شهر ذو القعدة. فإذا بهاتف يهمس إلي بأذون وقت السفر . . والإسطرلاب أو البوصلة ـ كما يحلو لك ان تسميه ـ يشير إلى العالم الجديد.

إلى أمريكا . . ذلك العالم الذى أربى على أربعة قرون من العمر، ولم يزل يحظى بهذا اللقب، ولم تبد عليه علامات الكبر وتجاعيد الزمن كأنه لا يتقادم ولا يهرم مع مرور الزمن، على الرغم من أن أربعة قرون كافية لأن تكسوه بالتجاعيد وخطوط الزمن.

نعم إنه لا يزال يحتفظ بشبابه وحيويته في كثير من جوانبه الحضارية، وإن لاح في الأفق البعيد بداية الأفول.

عقارب الساعة تشير إلى بزوغ فجر يوم جديد، وإلى اقتراب موعد إقلاع طائرة الخطوط السعودية، والشمس ترسل أشعتها في السماء وهي لم تشرق بعد، آتية من خلف فضاء سحيق، قد غربت عن نصف الكرة الأرضية الآخر . . . يالروعة الإشراق ومعانيه الجميلة، اللون الذهبى لأشعة الشمس تخالطه حمرة قليلة مزيج رائع بديع من الألوان تفتن كل رسام وتأخذ كل ذي حس مرهف، فكم من رسام عشق الشروق وهام فيه.

مددت يدى نحو مجموعة من الجرائد والمجلات، وأخذت أتصفح فيها

إلى أن وقعت عيناي على مقال يتحدث عن الحضارات ودورتها، وكيف أن الحضارة في نموها وتكوينها تتعرض لمراحل تشبه مراحل نمو الإنسان من الطفولة فالصبا ثم الشباب والفتاء حتى الهرم والشيخوخة.

وكاتب المقال يستشهد بالمؤرخ آرنولد تو ينبى(١) الذي أكد على أن الحضارة في تكوينها تشابه الانسان من حيث النشأة والتطور، إذ تولد ناعمة الأظافر كالطفل تعتمد في أفكارها على الحضارات السابقة ثم تتخذ في طريق النماء أطوارا حتى تصل إلى مرحلة الشباب، وهي حينذاك في عنفوان القوة والفتاء تعتمد بالكلية على نفسها وتنتج بزخم أفكارا ومبتكرات جديدة، وتتدرج إلى الهرم والشيخوخة، فتلحق بها أمراض الشيخوخة حتى يصيبها الوهن والخوار فتلقى منيتها وحتفها.

وأخذت أتنقل بين الكلمات والسطور حتى وصلت إلى قول منسوب إلى شبنجلر(٢) رأى فيه أن حضارة الغرب تهب عليها رياح الموت وهي في طريقها إلى التفكك والإنحلال.

وأنا بصدد الإنتقال من مهد الحضارة الإسلامية العملاقة إلى اكثر بلاد العالم استفادة من حضارتنا تلك، حيث قامت حضارة الغرب على أسس قوية ... وما هذه الأسس سوى تلك المؤلفات الضخمة التي لم تزل مرجعا أوليا لجل العلوم الطبيعية والانسانية على السواء، حتى إنك

١ ـ آرنولد تو ينبى: مؤرخ انجليزي له مؤلف ضخم عن نمو الحضارات وانحلالها وهو «دراسة في التاريخ».

٢ ـ شبنجلر: فيلسوف ألماني حديث صاحب نزعة تشاؤمية في فلسفته.

لتراهم قد أقاموا التماثيل لمؤلفيها أمثال ابن سينا وابن الهيثم وابن حيان وابن النفيس والبيرونى... وغيرهم، بل وأطلقوا اسماءهم على القاعات التي يتلقى فيها طلبة العلم علومهم، وفي هذا كله تأكيد واضح على عظمة المؤلف وعظمة الحضارة التي تربى في كنفها، والتي كانت في أوج إزدهارها في وقت كانت فيه أوربا تئن تحت نير الجهل والتخلف إبان العصور الوسطى المظلمة حيث السيطرة الكنسية على مقاليد الأمور الدينية والدنيوية والسلطوية جمعاء.

على الرغم من أنني منذ زمن أحمل عصا الترحال إلا أن السفر هذه المرة يأخذ منى مأخذا مختلفا، و يتناول بعدا جديدا لم أعهده من قبل، بعدا يحمل من المعاني التي تحرك في نفسى خواطر ومشاعر هبت فجأة دونما إشعار سابق في أسفار سابقة، وربما يعزى هذا لعدم وجود الصديق والرفيق في هذه الرحلة، على عكس الرحلات السابقة التي كانت عامرة بالصحب والأخوان.

إن السفر يعنى انتقال من مكان إلى مكان.

والسفر يعني قطع مسافات عبر الأ زمان.

وعلى قدر المتعة التي تتحقق في الأسفار، إلا أن بعض المشقة تصيب البدن من جرّاء الاستقرار في الموضع بشكل رتيب لفترة طويلة، الأمر الذى يورث الملل، بل والإرتباك في النظام والتوقيت. قد يغلب الصمت

على الموقف، ويخيم السكون والهدوء فالحركة لا تتجاوز موضع المكان يتململ فيه الجسم وتتبرم النفس...

وألفيت نفسى نهبا لسيل عارم من التساؤلات...

كيف سأمضى وقت فراغي في الطائرة..؟؟

ماذا سأقرأ..؟

من سيكون جارى..؟؟

هكذاانهالت على نفسى التساؤلات، وكل استفهامات السؤال تراود نفسى ولا أجد لها سوى الحيرة جوابا، كل سؤال يتمخض عنه سؤال آخر.. أكثر منه استفهاما... ولا جواب؟.

جواب واحد فقط هو الذي أتانى، إنه الاعلان عن إقلاع الطائرة وما يحتاجه من تهيؤ واستعداد، تهيئة النفس بطيب الدعاء، واستعداد الجسم باتباع تعليمات طاقم الطائرة، والتي أديتها بصورة تلقائية دونما إرشاد وتنبيه.

وراحت المضيفة تتابع شرح التعليمات بحركات تتقنها، والعيون راحت تتابعها... ووجدتنى أتابعها، تشرح كيفية استخدام وسائل الطوارىء المختلفة من مظلات وإسعافات، وكمامات هواء...إلخ.

الطائرة فيما خيّل إلى تسير ببطء شديد على مدرجها، وارتفع صوت

الشاطىء فتسحر العيون ... ولِمَ لا وهى مليكة الحسن والجمال.

الشمس ترسل أشعتها الذهبية تنفذ خلال النافذة تضىء بألوانها التى طغى عليها اللون البرتقالى مجلة أتصفحها... وتدور الطائرة محلقة في الفضاء لتنصرف عنى أشعة الشمس وتسقط على النافذة المقابلة في الجانب الآخر. بدت الطائرة وكأنها تسبح في بحر من الأشعة الذهبية والتى لم تفسدها الحرارة بعد، فكأنها تداعب مسافرى الفضاء.

أمضيت نصف ليلة أمس مع الأصدقاء، وما بقى من النصف الآخر في مرحلة ما قبل الرحيل، إذن لم أذق للنوم طعما، فالخلود للنوم الآن أصوب، والإرتكان الى الراحة أوجب، وجعلت أغمض عيناى استحضر النوم علّه يحضرنى، لكنه هجرنى وجفانى... خاصمنى النعاس وعزّ علىّ... النوم سوف يقصر المسافة ويختصر الزمن، ويخفف عنى ما قد يعتورنى من هواجس وأفكار.

كنت أتمنى أن يكون لى جارا يعينني في قضاء وقت السفر... وأحمله أو يحملني... نعم يحملنى، كمثل الرجلين الذين كانا على سفر، ولم تكن لهما وسيلة تعينهما على سفرهما كدواب أو غيره، فكان عليهما أن يقطعا المسافة سيرا على الاقدام.

وفي الطريق بادر أحدهما الآخر قائلا: إحملنى.. أو أحملك؟! فتعجب الرجل لقول صاحبه ولم يفطن إلى مقصده... وتمتم لعل لوثة أصابت

المحركات، وعلا أزيزها.. وتنبهت إلى حركتها وكأنها طفل يحبو، وتذكرت قول أمير الشعراء.. شوقي:

نصفها طيرٌ، ونصف بشر

يالها إحدى أعاجيب الفضاء

وما زالت تحبو، والمدرج مضيء بألوان على اليمين واليسار في خطوط طويلة تكاد تلتقى، وتلمع الأضواء خاطفة تبرق وتختفي، ولم أشعر بها إلا وهي تشق السماء، وتنطلق في الأجواء، وتطير في جوف الفضاء تصاحب السحاب وتمتطى الغيوم، تكاد لا ترى أسفلك، فالأرض واسعة رحيبة، والمدينة تبدو كأنها ذلك النموذج الذي صُنِع ليحاكى الأصل، والشوارع تبدو كخطوط أو قل خيوط ملقاة على الأرض متعرجة ولكن في شيء من العناية والنظام.

وبدت جدة ـ وكما هى دائما ـ في أبهى زينتها، وكيف لا وهي عروس البحر الأحمر الذي يحوى أبدع آيات الخالق مغمورة تحت الماء، ويكشف الساحل عن روعة البناء والفن متمثلين في «كورنيش» المدينة، وصفحة الماء تلمع تغريك أن تترك سفرك وتلقى بنفسك في أحضان جدة الرائعة التى تعانق البحر كَمُتيّمين إلتقى العشق بين ذراعيهما.

ويلقى الموج برذاذه ندىً يرطب جبين الحبيبة، ويهدى إليها اللآلىء والأصداف فتزداد عشقا وصبابة، وتلقى بجسدها الفارع على صفحة

عـقـله، ولم يرد عليه. ولكن الأ ول لم يسكت فإذا به يكرر نفس السؤال ثـانـيـة، فـرد صـاحـبـه في ضـجـر: كـلا لـن أحمـلـك، ولـسـت في حـاجـة لتحملنى!!.

ثم شرع السائل يسرد القصص والحكايات على صاحبه طوال الطريق حتى وصلا.. فسأله: هل شعرت بالتعب؟.

فـأجـاب قائلا: كلا لم أحس حتى بالطريق، فقد انشغلت بقصصك وحديثك فلم أشعر بالتعب، ولا بطول المسافة.

فـرد الأ ول قـائـلا: إذن أنـا حملتك في هذا السفر.. وهنا أدرك الرجل حـقـيـقـة مـا رمـى إلـيه صاحبه حين قال له في بداية الطريق إحملنى.. أو أحملك.

وتَـلفتُ ألتمس لى جاراأو رفيقا يحمل كلينا الآخر في هذا السفر، فقد خيّـم الـصـمـت حولى، ولا يقوى على كسر حاجز الصمت سوى الحديث المشترك.

بـيـد انـه لا أمل أن أجد الرفيق، فالمقعد الذي بجوارى شاغر، ولم لا وكـثير مـن المقاعد لم تجد لها ركابا، والمقعدين المقابلين على الجانب الآخر بهما صبى يرافق والده على اغلب الظن في العودة لأهلهما.

غـرقـت في بـحـر مـن الصمت والهدوء... ولا نوم بل التأمل والتفكر البعيد هكذا الهدوء والصمت يحرران الأفكار من أسر الصخب والضوضاء

و يطلقان العنان للخواطر والتأمل العميق الذى غالبا ما يفضى إلى الحكمة.

نعم كل ذلك قد يكون صحيحا ومواتيا إلا أن تكون على سفر، وعلى متن طائرة الأمر الذى يغتال الحكمة، وأى حكمة تلك التى ستهبط عليّ وأنا الذى لم أذق للنوم طعما منذ البارحة.

انشغلت أو شاغلت نفسى بالتنقل بين حركات المسافرين، استقرىء منها ومن سكناتهم وهمساتهم ما يخفونه في خلجات صدورهم، وما تحو يه عقولهم.. وحركة كثيفة بين الركاب فهناك من يعدل من وضع مقعده ليتناسب مع حالة الاسترخاء.. وربما النوم، وآخرون يتحللون من الأحزمة التى ألصقتهم بالمقاعد.

ألسنة شتى متعددة اللغات واللهجات، وهذا طفل يعلن عن تذمره من هذا القيد.. حزام الامان، وعلى كلٍ فهوعالم خاص ملىء بالأضداد، فهناك من يرى المتعة كل المتعة في الأسفار كحالي، بينما البعض يجعل قلبه معلق كل التعلق بذو يه حتى يعود إليهم، وفريق ثالث ينتابه الذعر وربما الهلع حينما تتعرض الطائرة لجيوب أو فجوات هوائية.. أو كما يسميها البعض مطبات هوائية.

وعلى كل حال فالجميع يشتركون في مشاعر الحنين إلى الوطن والأهل والديار كل هذه المشاعر والانفعالات تغلف بدرجة عالية من التصنع والكلفة في محاولات لكسر حدة الانفعال، والخروج عن الهدوء الصامت،

الذى يوقظ تلك العواطف و يلهبها.

بينما أنا على ذلك الحال من تدافع الخواطر، وتقلبات الانفعال، اذا بشيخ كبير يدنو مني.. عليه سمت الوقار، وهيبة الكبار يجلل رأسه شيب الحكمة وعلامات الحكنة، فأمّلت نفسى كثيرا.. ذلك هو الرفيق الذى تمنيت.. وحدثت نفسى أمنيها هذا هو الرجل المطلوب.

لابد أن لديه من التجارب ما لا تحويه دفتى كتاب، وفي ذكرها ما يحملنى أسفارا عديدة، و يزيل الصمت و يقصر الطريق، بل لابد أنه اطلع على أخبار الأولين والآخرين... فيروى عصارة خبرة جيلين وربما ثلاث.

إنه رجل قد عركته الحياة فنالت منه، وتركت تجاعيد الزمن تملأ وجهه، ونال هو منها ذكريات تحملك أسفارا ورحلات، وخبرات تخرجك من أعتى المواقف وأيسرها على حد سواء.

أجل عقبت على نفسى، إننى بصدد دائرة معارف حياتية حية، لابد أن لديه الكثير...

دنا منى الرجل وسلم، واستأذن في الجلوس بالمقعد المجاور، فرددت السلام وأسرعت بالترحيب.. على الرحب والسعة.

جلس الشيخ بجواري... وجعل يعدل من وضع مقعده ليناسب حالة الإسترخاء، وهو يتمتم بكلمات فهمت بعضها بالكاد، إنه يشكو من

مقعده السابق، وجهي مازالت البشاشة تكسوه، تابعت الرجل ببصري منتظرا فراغه مما هو فيه.

استقر الشيخ في مكانه، التفت نحوي قائلا وسماحة الشيوخ تطل من عينيه: إن المسنين أمثالي لا يصلح معهم إلا الخلود للراحة.. من فضلك لو جاءت المضيفة أبلغها أنني لا أريد شيئا، لا أريد طعاما ولا شرابا... فقط أريد النوم... النوم أريد، ولم يكد يفرغ من جملته حتى انخرط في النوم، وسرعان ما غط في سبات عميق..!!

عجبا..!! الرجل يريد النوم، وأنا الذى ظننته سيحملني في سفرى لم أدرك أن بعض الشيوخ في مثل عمره ـ وهو الذي ناهز العقود التسع ـ في حاجة إلى الدعة والراحة والاستكانة أكثر من أى شيء آخر.. إذ تضعف أبدانهم، وتذهب قواهم.. إنهم يجدون عافيتهم في السكون، والهدوء الذى يتيح لهم مراقبة ما يدور حولهم. وهم يسمعون أضعاف ما يتكلمون والدنيا في عيونهم صغيرة مهما اتسعت، فلا يجدون ممن عرفوا من الأقران إلا القليل، فينقص في عيونهم أهل الأرض، لأنهم يحصون من فقدوا و يغضون الطرف عمن ولدوا. وتجد اغلب حديثهم ينحصر بين أمرين: ذكريات تباعدت وآجال دنت، هذا هو حالهم وحالنا إذا أدركنا أعمارهم.

عذرت الشيخ مرة واحدة، وأخذت أبحث لى عن مخرج من الصمت بينما تتدافع الخطرات وتتزاحم الأفكار.. و يلح على سؤال ثقيل يفرض

نفسه: هل أخوض تجربة الصمت وحديث الذات؟.

ولئن فعلت فلن تخفف هذه التجربة عنى حدة الانفعالات التى تتزاحم في نفسى.

في هذه اللحظة انتقلت بى الخواطر والأفكار إلى كتاب قرأته منذ قبل لمفكر وأديب كبير(1) عن وصفه لرحلته من الرياض إلى الظهران مستقلا القطار يقول «وكان يطوى بنا الأرض، والذهن يطوى بى العصور، ثم سبقت إلى ذاكرتى أبيات للشاعر الأموى المتنبى الصغير الأبيوردى وكنت قد أولعت به حينا... الى أن يبلغ... فشعرت به يتمثل لى فكأنى أراه قاعدا أمامى في القطار».

وانقضت الرحلة بالأديب الكبير والمتنبى الصغير، وجمع من الأشخاص ممن جمعهم الحلم، منهم الطفيلى، ومنهم من كان أثيرا على حلم جميل، آنسه فيه جلساؤه وهونوا عليه، وهدأت بهم خواطره حين صاحبوه من موقع إلى موقع... ومن شاعر إلى شاعر ومن خاطرة إلى خاطرة حتى بلغ غايته... يالها من تجربة لطيفة... حقا إنها رائعة.

تلك ياشيخ كانت تجربة هنا بين قومك، بلغة أهلك، تفهمهم و يفهمونك تألفهم و يألفونك، فهذه الجزيرة بإتساعها تملأ عليك قلبك

١ ــ الشيخ على الطنطاوى في كتابه «حلم في نجد».

مختلف حيث أنني على الطرف المقابل من الكرة الأرضية وها هي الطائرة تسرع نحو بلاد ليس فيها لا ديار ولا أطلال العرب، تشق السحاب الكثيف فوق أجواء أوربا وعلى جبال البرانس بفرنسا، مَنْ يَاتُرى يصحبني.. أفولتير أم روسو؟ أم دانتي وميكيافيللي حينما عبرنا ايطاليا؟ أو فان جوخ عندما نحلق فوق هولندا؟ أو موتسارت في النمسا؟ أم هو شكسبير اذا علونا بريطانيا؟؟.

أجل ان لهؤلاء القوم ادباءهم وفنانيهم، و بلادهم زاخرة بالآداب والفنون، قد تعجبني... ولكنها على أي حال منهم ولهم ماضيهم وحاضرهم، ذكرياتهم وتاريخهم.

ولكنني احتاج لحديث حي مباشر لا اريد أسمع فأطرب أو أقرأ فأعجب... كلا اريد أن أجادِل وأجادَل، أقتنع برأي محدثي أو أقنعه، نختلف حيناً ونتفق حيناً أخر.

وأنا في هذا الخضم المتلاطم من الهواجس والأفكار، أحسست بشيء غريب... صفير الصمت المطبق يدنو و يعلو.. ثم رائحة عتيقة تحمل عبق التاريخ.. ونعاسا يثقل رأسي.. يغالبني، ثم أذهب في غفوة لطيفة بين الصحو والنوم.. !!

أرسلت بصري نحو جاري الشيخ الكبير، فوجدت عجبا..!! ورحت أطيل النظر.. وأمعن فيه.. أغمض عيناي، وأجتهد في فتحها وأفركهما من فرط الدهشة!!

وعقلك جميعا، وتنثر حبها بين جنبات صدرك وجوارحك، وتبعث في نفسك الفرح والسرور.

فقد تصاحب شاعرا أو أديبا، أو مسافرا يلهبه الشوق للقاء أهله وذويه وصحبه... أو لقاء حبيب، وتمر على الأطلال والديار.. ديار ليلى وأطلال خولة، ومضارب عبلة، وموطن الخنساء... أو أطياف بثينة وعزة حيث الديار وحيث الذكرى.

ويصحبك الأعشى إذا مررت بمنفوحة، أو امرؤ القيس إذا أدركت التوضيحية أما اذا عرجت على الصمان ألفيت عنترة، وحاتم الطائى إذا كنت بين الجبلين، وتجد الحارث بن حلزة في ديار بكر، وعمرو بن كلثوم في تغلب، ثم طرفة بن العبد إذا بلغت البحرين، وزهير وكعب وغيرهم الكثير والكثير ممن سطروا الملاحم والبطولات على أرض الجزيرة، وحكت الأجيال سيرتهم في أرض نجد.

لنجد قد صبت نفس مليا
فنجد أنجبت صيد الرجال
ففيها المجد بعد المجد يسرى
وفيها الصحب من أهل وآل
وفيها المكرمات تكاد تترى
بصبح ليس تتبعه ليال

تلك هى صحبة من يسافر عبر الأرضى العربية، ولكن الأمر الآن جد

ما الذى أرى..!؟ أرى صورة مشوشة.. طيفا لإنسان آخر غير جارى الذى عرفته.. شيخا مسنا.

أمعنت النظر.. ودققت.. بدأت الصورة تنجلى تدريجيا، إنه حقيقة وواقع، إنه بالفعل.. أمامى الآن رجل قد ناهز الخمسين.. نحيل الجسم.. أسمر البشرة.. يشخص بعينين واسعتين تجوبان المكان تتفحصان الناس والأشياء.

بدت عليه علامات الفروسية.. سمح المحيا.. ذكى الرائحة.. إلا أن أشد ما أثار دهشتى واستغرابى.. وعقد لسانى، حتى اختلط علىّ الأمر.. ملابسه..!!.

عجب عجيب.. ملابسه.. بدا وكأنه ممثل يقوم بدور في أحد الأفلام التاريخية، فهو يرتدي زى العصور السابقة..!!.

هذه العمامة الكبيرة تغطى الرأس.. قميص واسع فضفاض بأكمام واسعة دون المعصم.. سروال يغطى القميص أعلاه.. يتمنطق حزام من حرير لامع.. ثم ذلك النعل الخفيف..!!.

الألوان متناسقة بعناية.. الملابس نظيفة..!!.

غرقت في بحر من الإستفهام..؟؟.

ترى من يكون هذا الرجل..؟ ومتى أتى..؟.

ثم أين ذهب الشيخ جارى..؟ ومتى تبادلا المقاعد..؟؟

أنا لم أبرح مكانى قط.. أم ترانى في حفل تنكرى!؟

أم ماذا يكون الأمر إذن..؟؟

وعدت أتفرس ملامح الرجل جيدا.. هيئته.. شكله.. إنه شخص غير معروف في لباس غير مألوف.. زائغ العينين.. تائه النظرات.. كأنه يبحث عن شيء فقده، تعلو وجهه كل علامات الدهشة والإستغراب.. يتمتم بصوت خفيض غير مفهوم.. بدأ يتضح لى قليلا.. يردد: ما هذا..؟ أين أنا..؟ من هؤلاء الناس..؟؟.

وكلما أضاف تساؤلا برزت حدة الإستفهام في صوته أكثر.. ياهؤلاء.. من أنتم..؟.

طفق يتحسس جسده.. ملابسه.. يهمهم بزفرات وكلمات متقطعة.. وأردت أن أمد يد العون للرجل، وأسعف نفسى من حيرتها التى تتردد في صدرى، والتى خالها أشد وأقس مما هوفيه، فما زالت المفاجأة والدهشة تعقدان لسانى، ولا أجد تفسيرا لما يحدث حولى، تحينت الفرصة وسألته محاولا الاحتفاظ بقدر من الثبات قائلا:

من أنت ياسيدي؟ ومتى جلست هنا..؟.

ثم لماذا أنت في هذه الملابس الغريبة..؟

فأجاب على تساؤلاتى بتساؤل آخر.. قائلا:

بـل من أنت..؟ ومن أنتم..؟؟؟ وما هذا الذى يحدث هنا..؟؟؟ هذا مكـانـى لـم أبـرحـه مـنـذ.. وتـوقـف عـن الكلام.. فرك جبينه يستحث الذاكرة.. يستجمع قواه.. ولكنه استمر في الصمت..!!

فبادرته: منذ متى..؟ منذ ماذا..؟ إنى لم أرك قبل الآن.

ثـم عـاد ثـانـية يتفحص الوجوه.. وكل ما حوله، يرمق الجميع بعيون لامعة.. محدقة تفيض دهشة وذهول، والإستغراب كسا وجهه.

وأنـا لا أسـتـطـيـع تـصور ما يحدث.. فقط أعرف شيئا واحدا وهو أن الرجل غريب.. لا يعرف أين هو..!

لا يـألـف المـكـان.. ولا حتى الزمان، ثم إنه لا يعرف الناس الذين من حوله..!!

ربمـا حـدثت نفسى ـ فقد ذاكرته إثر صدمة لحقت به.. أو لعل الرجل مصاب بمرض الفصام كما يسميه الأطباء النفسيون.

أردت الإسـتـعـانـة بمـن حـولى من الركاب أو طاقم الطائرة.. ولكنى لاحـظـت أن أحـدا لم ينتبه للأمر.. تركت للرجل فرصة التذكر والتقاط أنفاسه وتجفيف عرقه الذى سال على جبينه.

الآن أدركـت أن مـا أراه.. أراه وحـدى.. وتحـقـقـت من أن الدهشة

والحيرة من نصيبي والرجل كلينا..، فتيقنت أن امر مخالفا للعادة غير مألوف هذا الذى يحدث، وقد جاء تفسيرى له على وجهين أو احتمالين لا ثالث لهما: إما أن يكون الرجل قد تعرض لشيء ما..، أو أننى أتعرض لأمر خارق لنواميس الطبيعة..؟!.

إذا كان الأمر يتعلق بالرجل فهو قد يكون مصابا بإنفصام الشخصية كما أسلفت، أو تعرض لصدمة شديدة أفقدته حافظته، أما إذا كان الأمر متعلقا بى فهو ضرب من الخيال، أو أحلام اليقظة، أو تداعى الخواطر، وربما يكون ما يسمى بالحياة في الماضى(١) وقد يكون السبب في هذا إلحاحى على نفس وضغطى عليها للبحث عما يسرِّى عنى.. فقد يكون إيحاءا.

فقط وحدى المتنبه لما يحدث، فلنتفق - إذن - على أنه خيال أمارسه عن وعى كامل..

وعدت أسأل الرجل: من أنت ياسيدي..؟.

فرد وكأنما لدغته أفعى: أنا شاعر الدنيا..!

فعاجلته بهدوء قائلا: قد تكون شاعرا، وأىّ شاعرٍ هذا الذى يقول عن نفسه غير ما تقول.. فكل شاعر يمكن أن يدّعى ذلك، أو هو يدعيه بالفعل.

١ ــ كنت قد شاهدت فيلما يطرح فكرة الحياة في الماضي من خلال قصة شاب أعجب بمغنية أو برالية ماتت منذ قرنين، قد شاهد صورتها تكرارا في المتحف، واستطاع بالايحاء النفس الحياة في الماضى ليعيش معها فترة من الزمن.

فأجاب وهو مازال في حال من الذهول ولكنه ألف حديثي قليلا.. أجاب منشدا:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغردا

فأنكرت معرفتى له.. وقلت: ما عرفتك.. قد تكون دعيّا، أو راو يا للشعر.

فأنتفض مزمجرا، وتحولت دهشته إلى غضب.. نهرنى ببيته:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فأسرعت أهدىء من روعه قائلا: نعم.. نعم عرفتك الآن.. ولكن من مقتلك.. ألا قاتل الله الكبر، يفتأ يغرر بصاحبه حتى يقتله.. إنك هو «أبو الطيب المتنبى».

فرد قائلا: كلا.. أبو الطيب.. أحمد بن الحسين، من أين لكم بهذا الاسم - يقصد المتنبى -.

قلت: عفوا.. جاءنا اسمك هكذا.. و بدأت محاولة إستدراجه في حديث طو يل، غير أن المضيفة تنبهنى إلى شىء من الطعام:

لا أذكر إن كنت تناولت شيئا من الطعام، أم أنني تركته فما يشغلني عن ذلك كثير.. وحقا بالإهتمام جدير. وكيف أغفل عن الحابور(١) ومجلس السرور.. وهذه تساؤلات تتسارع لتأخذ مكانها على لساني.. وذلك ولعٌ وإعجاب بمحدثي.. أمرٌ جد جلل الذى أعيشه الآن.

كيف احتفظ بشعرة معاوية بيني و بين الرجل..؟.

ومن أين أبدأ الحوار..؟

وجدتني في بحيرة من الحيرة.. هل أعود القهقرى إلى زمن أبي الطيب أم أنقله إلى عالمنا بسرعة.. كلا الأمرين صعب وعسير، وعادت الرُّحى تدور في نفس، فصرت كمن يريد تجاوز بحر متلاطم الأمواج.. عوما، أو كمن استغرق في حلم جميل ثم أفاق على صوت الواقع، فعاد محاولا النوم مرة أخرى ليستمتع بحلمه وصفائه وجماله حتى لا ينتهي ابدا.

وأخيرا استجمعت قواى، لابد من محادثته وإلا تركني وذهب لشأنه، إنه الآن في زماني ضيف عليّ، وزمانه قد علمناه من التاريخ والكتب الصفراء، عليّ ــ إذن ــ أن أغتنم الفرصة لأحيطه علما بما يحدث في زماننا، وأن آخذ رأيه فيه..

سألته.. أبا الطيب، ما قولك في الشعر الحر؟.

١ ــ الحابور: مجلس السرور.

صمت الرجل.. إزداد تفحصا لوجهى، وعلامات التعجب تكسو وجهه.. تنم عن إستغراب ودهشة بالغين، وهو الذى اعتاد حديثي أو بالأحرى ألفه، وألف وجوده في عالمنا، ذهبت دهشته السابقة وتلاشت فكأنما قبل ما هو عليه واسترد هدوءه، ولكنه الآن مندهش من سؤالى..!!

سألنى مستفهما: ماذا تعنى..؟

وأردف: هل هناك شعرٌ حر، وشعرُ رقيقٍ..؟.

هل تقصد أن هناك شاعرا حرا يقرض شعرا حرا؟.

وآخر يرسف في اغلال الرق ينظم شعر رق وعبودية..؟؟

قلت: كلا ياأبا الطيب إن الشعر الحر هذا والذى يسمونه أحيانا شعر التفعيلة نوع مستحدث من الشعر يعتمد على التنو يع في بعض الأ بحر المستعملة، و يرجع ذلك إلى ضيق الشعراء المعاصرين بالعروض وتفعيلا ته وتفريعاته، واستسهالهم ركوب ما يركب من بحوره دون أن يسلموا في ذلك من كسر الوزن جهلا به لا تحديا له.

واستطردت في حديثي مدللا على ذلك بقول نازك الملائكة(١) «إنى لعلى يقين من أن تيار الشعر الحر سيتوقف في يوم غير بعيد، وسيرجع

١ ــ نازك الملائكة شاعرة عراقية معاصرة، تعتبر نفسها من رواد الشعر الحر، صدر أول ديوان لها عام ١٩٤٧م.

الشعراء إلى الأ وزان الشطرية بعد أن خاضوا في الخروج عليها والاستهانة بـها، وليس معنى هذا أن الشعر الحر سيموت ولكنه سيبقى قائما يستعمله الشاعر لبعض أغراضه ومقاصده دون أن يتعصب له و يترك الأ وزان العر بية الجميلة».

و يسأل أبو الطيب: هل لها شعر من هذا الحر تُسمعنيه.. و يقصد نازك..؟

أجبت: نعم.. وإليك منه

وأفقنا، وأنتهى الشيء الذى خلناه حبا

وتبقت حولنا الذكرى التى تسخر منا

من خيالات صغيرين، بدا نجم فظنا

أن في وسعها أن يمسكاه فاشرأبّا

لحظة ثم تهاوى السلم

في برود، وتلاشى الحلم

هز أبو الطيب رأسه مستزيدا ثم قال: أكمل حديثك..

قلت: وهذا أيضا الشاعر أدونيس(١) الذى يرى أن المشكلة لم تعد

١ ــ أدونيس على أحمد سعيد شاعر معاصر له عدة دواو ين في الشعر الحر، تنشر قصائده في الصحف والمجلات، ترجمت بعض دواو ينه الى اللغات الحية.

نزاعا بين الشعر الجديد والقديم، وإنما أصبحت في الشعر الحديث نفسه وتميزه، في الواقع - يقول أدونيس - أن في النتاج الشعرى الجديد إختلاطا وفوضى وغرورا تافها وشبه أمية، و بين الشعراء الجدد من يجهل حتى أبسط ما يتطلبه الشعر من ادراك لأسرار اللغة والسيطرة عليها، ومن لا يعرف من الشعر غير ترتيب التفاعيل في سياق ما، ومع ذلك يملأ الدنيا شعرا، و يرى أدونيس أن الشعر الجديد ملىء بالحواة والمهرجين.

وأردفت: والآن سأسمعك شيئا من شعر أدونيس، في قصيدة له بعنوان تحولات صقر.. يقول:

يامرايا الضياع الطويل
غيّرى صورة القمر
لم يعد وجهها هناك
أمس كنا على القمر
فرأيناه عاريا
ورأيناه في الثياب
وصعقنا من النظر
كان وجها من التراب
غيّرى صورة القمر
لم يعد وجهها هناك

يامرايا الضياع الطويل
ساكن حيث تغفو تطيل الزفير
في الحقول المريضة
في السرير الذى فرشته الدموع
في الممر الصغير
بين أجفانها والسماء العريضة

وعقبت قائلا: ان قصيدته هذه طويلة.. طويلة نكتفى منها بهذا القدر، ولكنى أريد أن أذكر لك واحدا من الذين أجادوا في هذا الشعر إنه صلاح عبد الصبور(١).. يقول:

و يظلُّ يسعلُ، والحياة تموت في عينيه، إنسان يموت
وعلى محياه القسيم سماحة الحزن الصموت
والبسمة البيضاء تمهد فوق خديه محبة
لك، لى، لمن داسوه في درب الزحام
ألقى السلام
وصفا محياه، وأغفت بين جفنيه غمامة
بيضاء شاحبة يطل بعمقها نجما سواد

١ ــ شاعر مصرى رحل في العقد الماضى، له دواوين كثيرة، ومسرحيات شعرية عديدة لقبه البعض بأمير شعراء العصر الحالي.

وتمطت الرئتان في صدر زجاجي خَرِب
وامتدت الأنفاس مجهدة تراوغ أن تبوح بالإنكسار
إنى انهزمت، ولم أصب من وسعها إلا الجدار
والنور والسعداء من حولى، وقافلة البيوت
لكنه ألقى السلام
ومضى، ولا حسٌ، ولا ظلٌ، كما يمضى ملاك
وتكورت أضلاعه، ساقاه في ركن هناك
حتى ينام
من بعد أن ألقى السلام

أبو الطيب: إنى أراهم يغوصون في أعماق النفس البشرية، ولكنهم لا يستخرجون منها إلا الحزن والضياع.

فقلت: نعم لقد صدقت، حتى ترى شاعرا مثل صلاح عبد الصبور يكتب قصيدة كاملة بعنوان «الحزن» منها:

ياصاحبى، إنى حزين
طلع الصباح فما ابتسمت، ولم ينر وجهى الصباح
وخرجت من جوف المدينة أطلب الرزق المتاح
وغمست في ماء القناعة خبز أيامى الكفاف
ورجعت بعد الظهر في جيبى قروش

وتوقفت قائلا: القروش جمع قرش وهو مثل الفلس في أيامكم

فأومأ برأسه قائلا: نعم.. نعم، أكمل

وأكملت:

فشربت شايا في الطريق
ورتقت نعلى
ولعبت بالنرد الموزع بين كفى والصديق
قل ساعة أو ساعتين
قل عشرة أو عشرتين
وضحكت من أسطورة حمقاء رددها الصديق
ودموع شحاذ صفيق

وعقبت قائلا: إنه يقدم صورة لحياة تافهة تنطلق في الصباح وراء فتات العيش، وتقضى ما تبقى من يومها في ممارسة السخف والابتعاد عن جوهر الحياة.

يبدو أن أبا الطيب استحسن في هذا الشعر شيئا، أو لعله يريد أن يخلص لرأى قاطع يستصدر به حكما نهائيا، لذا فهو يطلب الاستزادة فاستزدته من قصيدة للسياب(١) بعنوان «حدائق وفيقة».. يقول:

لوفيقة
في ظلام العالم السفلى حقل

١ ــ بدر شاكر السياب شاعر عراقى معاصر تزامن ظهور أول ديوان له سنة ١٩١٤٧م مع ظهور ديوان نازك الملائكة، له دواوين كثيرة في الشعر الحر.

فيه مما يزرع الموتى حديقة
يلتقى في جوها صبح وليل
وخيال وحقيقة
تنعش الأنهار فيها وهى تجرى مثقلات بالظلال
كسلال من ثمار، كدوال
سرحت دون حبال
كل نهر
شرفة خضراء في دنيا سحيقة
و وفيقة
تتمطى في سرير من شعاع القمر
زنبقى أخضر

وأردت أن أنهى الخوض في هذا المجال.. فذهبت أردد هذه الأ بيات لأحد الشعراء:

أعجبك الشاى
هل تريدين بعض الحليب

إلتفت أبو الطيب نحوى منزعجا، لقد كان غارقا في أمر آخر.. ماذا..؟ ماذا تقول..؟

رحت أكرر ثانية.. أعجبك الشاى
هل تريدين بعض الحليب

فأنتفض أبو الطيب صائحا: كفى.. كف عن هذا اللغو

فعاجلته قائلا: لا عليك.. سألقى عليك شعرا جيدا لشاعر ينزع منزع أصحاب الاتجاه الوجدانى، يتغنى الغناء الحزين، و يسترجع ذكريات ملتاعة.. إنه فاروق جو يدة(١).. يقول:

الليل كالسجان يصفعنا
و يضحك خلفنا
والصمت بيت موحش الأشباح
يصرخ حولنا

وفي قصيدة بعنوان «بالرغم منا قد نضيع» يذكر فيها بحس مرهف التحولات التي تصيب ابن القرية إذا نزح الى المدينة..:

كانت حياتي مثل كل العاشقين
والعمر أشواق يداعبها الحنين
كانت هموم أبى تزوب بركعتين
قد كنت مثل أبى أصلي في المساء
وأظلُّ أقرأ في كتاب الله ألتمس الرجاء
أو أقرأ الكتب القديمة
أشواق ليلى.. أو رياض أبي العلاء

١ ــ شاعر مصرى معاصر، صدرت له ثمانية مجموعات شعرية، ومسرحيات شعرية، ترجمت بعض قصائده إلى اللغات الحية.

ثم نزح الى المدينة فيصور حالها قائلا:

وأتيت يوماً للمدينة كالغريب
ورنين صوت أبي يهز مسامعي
وسط الضباب وفي الزحام
يهزني في مضجعي
ومدينتي الحيرى ضباب في ضباب
أحشاؤها حبلى بطفل
غير معروف الهو ية
أحزانها كرماد أنثى
ربما كانت ضحية

و يبرق لأ بيه كلمات يصور فيها حاله في المدينة قائلا:

درب المدينة ياأبى درب
تتربع الأحزان في أرجائه
ويموت فيه الحب.. والأمل الغريق

ويحمل فاروق جو يدة هموم الإنسان العربى الذى فقد فردوسه «القدس» و يناجيه:

ألا والله ما بعناك ياقدس
فلا سقطت مآذننا
ولا انحرفت أمانينا

ولا ضاقت عزائمنا

ولا بخلت أيادينا

فنار الجرح تجمعنا

وثوب اليأس يشقينا

وإليـك يـاأبا الطيب الشاعر أبو سنة(١) الذى يبحث في جدلية الموت والميلاد، ويجسد الموت كأنه الحياة:

أعاصفة أم دموع

تظلل عينيكي .. أنت تطيلي السكوت

فهل تبعث الآن في الرمل

أم أنت بين لفائف عشرين قرناً تموت..؟

و يصور تغيير الرؤى والمنطلقات التي مستها عصا الساحر.. في نيو يورك:

الزمان اختلف

فالبرىء انتهى

واللبيب احترف

لم يعد ينقذ الآن من الموت أن تلزم المنتصف

لم يعد ينفع الآن أن نعتكف

والخيول التي كان وقع حوافرها يصنع الحلم تسقط في المنعطف

والحمام الذي يهدل فوق غصون الطفولة اصبح لا يأتلف

١ ــ محمد ابراهيم أبوسنة شاعر مصري يعد من الجيل الثاني من شعراء الشعر الحر له دواو ين.

والبلاد التي كنت تهوى مغازلها
كل هذه البلاد رقاب .. وسيف
طاش بعد العناء الهدف
آن أن نعترف: الزمان اختلف

وهذا عبد الوهاب البياتي[1] يصف في شعره الواقع فيصوره واقعا ترى الكلمات تنقل السوق بكل صغيرة وكبيرة كنك تشاهد فيلما سينمائيا

فتساءل أبو الطيب: فيلما سينمائيا.. وماذا يكون هذا الشيء؟

فقلت موضحاً: انه تصوير للواقع كأنك تحيا، احدى مستحدثات العصر، فسمع تصويره:

وخوار وأبقار.. و بائعة الأساور والعطور
كالببغاء تدب: قبرتي العزيزة ياسدوم !
لن يصلح العطار ما افسد الدهر الغشوم
والشمس في كبد السماء
و بائعات الكرم يجمعن السلال..
عينا حبيبي كوكبان
وصدره ورد الربيع

وهذا حال شعراء الشعر الحر، ركض وراء الغربة والحزن، وهذا خليل حاوى[2] يجعل نهاية قصيدته «وجوه السندباد» حزينة سجينة:

١ ــ شاعر عراقي معاصر له عدة دواوين في الشعر الحر والشعر التقليدي.

٢ ــ خليل حاوى شاعر لبناني معاصر له عدة مؤلفات شعرية اشتهرت قصيدته «البحار والدويش» في الخمسينات.

سجين في قطار
مُرّة ليلته الأولى
ومُرّ يومه الأول
دمنا في دمه يسترجع
الخصب المغنى
حلمه ذكرى لنا
رجع لما كان.. وكنا
ويمر العمر مهزوما
و يعوى عند رجليه.. ورجلينا الزمان

وفي ختام هذه الجولة بين بعض شعراء الشعر الحر سأتوج اللقاء بأبيات لفاروق شوشة(١) يقول:

كان ... وكان
كان الشجر الساجى في عينيها يبكي
تساقط أمطار الشجو
وتخضل جراح وئدت خلف السمت المتماسك
عمرا طال
الشجر الباكى يرحل يسحب أستارا كانت، وظلالا شوهاء
و يكشف عمق الهاو يتين الجاحظتين

١ ــ شاعر وكاتب وإذاعى مصرى، له عدة دواوين شعرية، وله برنامج إذاعى شهير هو «لغتنا الجميلة» أصدر منه كتابين حتى الآن.

الفاغرتين فما معتلا لا يحكى
ماذا بعد من الأ يام..؟
الشجر الساجى نام
وانطفأت جذوات النقمة في القلب المقرور
وتهيأت اللحظة للإغفاء، فمن يدرى ما طول الغفلة
ما عمق الذكرى السوداء
الرأس يميل على استحياء
يتخاذل...
يهــوى

و يـبـدأ أبـو الطيب في الحديث عن الشعر الحر قائلا: إن في الكلمات السـابـقـة أقـصـد الأشعار التى ألقيتها عليّ، كلمات وألفاظ جديدة على مسـامعـى ولا يجب عليكم أن تنكروها على قائليها لمجرد كونها جديدة، فـالشعر كما أخبرتك سلفا لابد أن يكشف عن ما تعانيه الأمة، و يعكس الحوادث جميعها حلوها ومرها معاً، فالشعر ديوان العرب.

ثـم أضـاف: إن الـتحرر ممنوع ومن ثم فهو مرغوب، وليكن الفرد حراً لا مـتـحـررا، ولـيـحـمـل الـشـعـراء ألـو ية الحرية لا التحلل، فالتحرر من الـعـروض والـقـوافى لـيـس حـرية البتة، وإنما هوعجز عن بلوغ القدرة على صياغة جيدة لشعر نظيف.

إنهم يدّعون التحرر من الجبرية والحتمية في العروض والقوافى لينطلقوا

نـحو موسيقى جديدة، إننى لم ألمس موسيقى اللهم إلا القليل النذر، بينما تـزخر أشعارنا بها، ضف إلى ذلك أن بعضهم أو قل جُلّهم إن شئت يحمل في شـعـره صـعلكة مرفوضة.. حزن وضياع بينما أنت ترى أشعارنا مرصعة بالحكمة. لآلىء نستخرجها من أعمق أعماق النفس البشرية.

وجـذبـت طـرف الحديث قائلا: والآن ياأبا الطيب سأريك نوعا آخر مـن الـشـعـر نـسـمـيه الشعر النبطى، وهوضارب الجذور إذ يمتد إلى القرن الثامن الهجرى.

أبـو الـطـيـب: إنـه بعد زماننا بفترة طو يلة قرابة الأ ربع قرون. ولكن لماذا أطلقتم عليه اسم النبطى..؟.

قـلـت: سـمّى بهذا الاسم لأنه استنبط بمعنى استحدث، والمصدر هنا نبط بمعنى نبع، والاستنباط: الاستخراج، و بالتأكيد كان الاستخراج من الشعر العر بى الفصيح.

وعاد أبو الطيب يتساءل: لعلكم تعرفون أصوله الأ ولى.

أجـبـتـه قـائـلا: نـعم. إن قبيلة بنى هلال، وهى من القبائل العر بية الكبيرة بأرض الجزيرة هى التى استحدثت هذا النوع من الشعر، ولم نزل نحتفظ بقصائدهم.

أبو الطيب: هلا أسمعتنا بعضا منه

قـلـت: لـك ذلـك يـاأبـا الـطـيـب، ولـكن الذي سأسمعك اياه الآن

جوابى على أبى الطيب بأبيات لابن سبيل في الحكمة قائلا:

لا تـاخـد الـدنـيـا خراصٍ وهقوات
يقطعك من نقل الصميل البراد
ولا ينفع المحرور كثر التنهات
ولا يسقى الظامى خَضيض الوراد

واستدركت بقولى: حقا إنكم معشر الشعراء أعلم الناس ببواطن الكلمات، وصدق من قال قديما المعنى في بطن الشاعر.

وعاد أبو الطيب ثانية يتفحص في الشعر النبطى قائلا: لقد ذكرت بيتين منذ برهة لابن سبيل يصف زين العذارى كما أسماها فهلا زدتنى من بعض شعر الوصف عنده.

فتهللت منشرحا لتجاوب أبى الطيب مع الشعر النبطى وقلت نعم.. على الرحب والسعة، وأنشدت أبيات لابن سبيل يقول فيها:

غـروٍ يشـادى للـهـوى مِـتـرفـانـى
كـم طـارشٍ للـغـىّ داسـه حـصـانـه
الى ضـحـك ثـم ابـرقن الـثـمـاني
كـنّ الجـواهـر تِـنـتشر مـن أوجـانـه
الـوَسـط هـا في والمـبـادِى مـتـانـى
مـا فـيـه لـولا.. كـامـلٍ في زمـانـه

ووجدت أبا الطيب منصتا يتمعن و يتفحص فيما ألقيت عليه من أبيات

لشعرائنا المعاصرين يفيض بأحاسيس الحاضر حاملا في طياته عراقة الماضي وسيكون على رأس حديثنا شعر ابن سبيّل(1) احد اعمدة الشعر النبطي والذي عاش قرابة قرن مضى من الزمان وكان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، وانما كانت ثقافته سماعية في اغلبها، الا انه قال شعرا بالسليقة فأحسن الى الشعر النبطى، وها هي بعض أبيات يصف فيها احدى الحسان وهي تمر امامه:

عَـلِيـك يـا اللّي في تمـدريـه مـقبـول
زيـنـَه على زيـن الـعـذارى تـنـافيـل
إلى مـشى بحجـول والـرّاس مجـدول
يـنـقض على الأمـثـان شـقـرٍ عـثـاكـيـل

وأردفت: والرجل كان شعره عفو يا لا تكلف فيه، يلقيه حال تأثره بموقف معين فهو شاعر وليس صانع شعر.

حينئذ قال أبو الطيب: هذا يعنى أنه لم يكن له غرض بعينه أو مجموعة أغراض محددة يلقى فيها شعره، وحديثك هذا يدل على أن الرجل كثير الاحتكاك بالناس، ومن ثم لابد أن له شعرا في الحكمة.

وجدت نفسى منجذبا لأ بى الطيب منصتا لحديثه الذى أبدى فيه تحليلا رائعا، وكأننى جالس أمام أحد الفلاسفة المحنكين، وسرعان ما كان

١ ــ هو عبد الله بن سبيل الباهلى انتقلت اسرته من مدينة المذنب الى الآثلة فعمروها ثم الى نقى حيث ولد شاعرنا ونظم الشعر فأبدع فيه وأحرز شهرة واسعة في أرجاء نجد، واعتبره أمير شعراء النبط.

ولسان حاله يقول هل من مزيد، فقلت وفي موضع آخر يقول:

أَلجادل اللي مايقٍ في تِمدريه
ذعذع هواه وضاحكٍ له زمانه
كل يعرفه مير ما ودّى اطريه
وإلا بها سيد العذارَى بيانه
الى مشى كنه عزيزٍ تهديه
وإلاّ معلمَّه الحمام ادرِجانه
ياعاذل المُشتاق من دون غاليه
لا تنصَح الوارد يزيد امتحانه
نفسٍ مهاويتَه وعيني تراعيه
وعليه قلبي ذاهبٍ ذيهبانه
والى نويت انسَ مجالَه وطاريه
عيّا قراني ينطلِق من قرانه
فلا بَغيت اترك طريقَه واخلّيه
ارخي لشامه لين يبدى ثمانه
وريّعت له تريبع طيرٍ لداعيه
لا شاف نسَره واجهرَه بانْدبَانه
والمهتوى طرد المها ما يعينه
كنه على زل العُجم بعد يانه

سيل النّحا ما ينعدل عن مجاريه

لو يضرب السّندى يزيد ارقيانَه

وسكت، ليأتى الحديث من جانب أبى الطيب الذى قال: لقد لمست في الابيات السابقة صدق الوصف لدى ابن سبيل فجاءت الأ بيات كذلك، كما أن وصفه للحسن رائعا واحساسه بالجمال اكثر، فانعكس كل هذا وذاك على شعره.

وأببت أن أزيد من شعر ابن سبيل حتى لا يظن الرجل أننا مقلون في الشعر عنهم فانتقلت بقولى: وإليك شعر بديوى الوقدانى(١) شاعر مبدع نمى ملكة القريض بشيء من النحو والأدب فأبدع شعرا حسنا جميلا، ففي إحدى قصائده يقدم لنا صورة عذبة رقيقة في الغزل قائلا:

هيّج أشواقي حمامٍ في الغصون

بات ساجِع في بَديعات الفنون

بين تغريد وترجيعٍ بهون

ما درى إنى في الهوى مثلَه عليل

ياحمام الدُّوح هيّجت الغرام

ما سبب نوحَك ومالك من مرام

إعطنى عهدك وخُذ منّى ذمام

بيعَنى شوقك وخذ شوقي بديل

١ ــ شاعر من قبيلة وقدان بالطائف توفى عام ١٢٩٦هـ، اشتهر بنظم «الحمينى» وقرض الشعر الفصيح فأجاد فيه.

وهنا قطع أبو الطيب القائى بقوله: إن تبادلية القافية في تناوب حرف اللام مع النون والميم أضفى جرسا موسيقيا جميلا.

واستمرت الكلمات تنساب على لساني يصدح بها:

كم رعيت النجم والعالم رقود
والمحاجِر دمعها الصّافي يسيل
زارني طيفَه كما طيف النسيم
جدد الأشواق والعهد القديم
وانثني في داجيّ الليل البهيم
قلت: زِدني، قال: يَكفيك القليل

وأخذ الشاعر يناجي النجوم وتلعب بأفكاره الهواجس:

طار نومي يوم نامت كل عين
بِتْ سَاهر مع نجوم الفَرقدين
من هواجِس من جفَا من جُوردين
ما بقى إلا البعد عنها والرحيل

صوب أرض الشام أو أرض العراق
علّ يومٍ فيه ينحل الوثاق
كم نقاسي والقسامر المذاق
ربما نِلقى عن المَنزل بديل

وتوقفت على عبارة أبى الطيب: لماذا حاولت أن تفهمني من خلال

تعريفي بالشعر النبطى أنه مستحدث، كلا انه الشعر الذى عهدناه بعينه، ربما هناك اختلاف بسيط فيما يتعلق بالقافية والوزن وقليل من الألفاظ، ولكنه في جملته لا يكاد يختلف عن الشعر الذى نعرفه وتعلمناه ونقرضه.

فقلت: لم أقصد من خلال تعريفك بالشعر النبطى أن أؤكد لك أنه يختلف عن الشعر التقليدي، ولكنى عمدت أن أبين لك نقاط الاختلاف لأنك ستعرف بطبيعة الحال نقاط الشبه والاتفاق بين الشعر النبطى وشعركم، وتفهمك السريع للشعر النبطى قلب موازين توقعاتى، وهذا يوفر على المقدمات الطويلة، وسيعجل بالخوض في بطن الشعر لسبر أغواره وتفهم معانيه.. فلننظر ـ اذن ـ الى أبيات الوقدانى التى يرقى فيها بممدوحه الى مستوى النجوم، و يصور هيبته تخشاها الجبال والوحوش جميعا، و يرى سيفه حصاد الرؤوس، حيث يقول:

هبّت هبوب الحظ والنصر قايم
وشمسك بدَت وشموس أعاديك غابت
يابدر من نورك تضيع النعَايم
وسهيل والمرزم من مبدَاك غارت
تزلزت منك الجبال العظايم
والوحشْ مِنكُم بالجبال استجارت
عبد الله هَـ اللّى في يديه الحكايم
نجمه علا ونجوم غيره تهاوت

ون جا نهارٍ فيه بايع وسايم

في ملتقى الصفّين والخيل غارت

ينصى صدور الخيل يوم الهزايم

والبيض والسُمر العوالى تخاوت

ويجمع الشاعر بين ممدوحه وخصمه في بيت واحد جمعا ينبىء عن تمكن قائله:

فرعون مات اللّى من اول مْزاعِم

والله نصر موسى والأفلاك دارت

و يعترض أبو الطيب محتجا: كأن شاعرك تخصص في المدح دون غيره من أغراض الشعر.

قلت: كلا.. ليس الأمر كما يبدو لك فالرجل أجاد في كافة أغراض الشعر ولكننى أخذت لك قصائده في المدح والغزل لأنهما أكثر جودة من الأغراض الأخرى، ثم إن الرجل لم يكن المدح ـ كما تظن ـ وسيلة يتكسب منها، فله منهج في المدح يوجزه في هذه الابيات:

يامادح الأنذال مدحك خسارة

وراك ما تمدح هَلَ الفَضل والجود

اللّى يشوفون المدايح تِجارة

واعراضها ما حشّها عِلم منقود

ان الردى لو تضربه بالحجارة

والا مطارِق شوكٍ وسلاح محدود

جـــنـــبَـــه مـتين ولا يخـاف المـعـارَه

ولا يـعـرف الـبـيـضـا ولا يـعـرف الـسـود

والحُـــر دايــم يحـتــرك بــالاشـــارة

يـفِــزّ مـثـل الـزّنـد الى الـقَـدح بـارود

وسـأنـتـقـل بك الآن الى شاعر آخر من أشراف مكة المكرمة وهو الشريف بـركات(١) الذى يقول شعرا بلا تكلف، وفي هذه الأ بيات يوصى ابنه بما لقنته الأ يام والسنون، يقول:

مـن نَـمّ لـك نَـم بِـك ولا فِـيـه تـشـكـيك

والـيـــاه قـــد زَرى رفـيـقَـك وزرّاك

عـنـدَك حـكـى فِـيـنـا وعِندى حكى فيك

وأصبَحت كَارِهـنـا وحـنّـا كـرهـنـاك

مـا أخـطـاك مـا صـابَـك ولـو كـان رَاميك

واللّى يـصـيـبـك لـو تِـتّـقـيـت مـا اخطاك

فعلق أبو الطيب بقوله: ألا قاتل الله النميمة والنمامين والوشاة.

قلت: نعم.. لقد نال منك النمامون وأنت صعب المنال.

وصمت كلانا قليلا.. ثم قلت محاولا التحول الى موضوع آخر، لقد فخرت بـقـومـك يـاأبـا الطيب من خلال فخرك بنفسك، وهكذا الشعراء عندنا.. شعـراء النبط جلهم تفاخروا بأقوامهم فهذا عبد الله بن ربيعة(٢) يقول:

١ ــ هو الشريف بركات بن عبد المطلب من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر، من اشراف مكة.

٢ ــ عبد الله بن محمد بن ربيعة بن وضّاب توفى عام ١٢٧٣هـ. و يعد من فحول الشعراء.

نـاهيك من صَنعًا الى ما ورا الدّير
أنـشِـدك مـن كُـلّ الـبـوادى جـواره
أنـشـدك مـن خـيلَه بـفـارسٍ مـشاهير
وأنـشـدك مـن أضــرمعلى العُجـم نـاره
رون قـيـل ثـور مِـقـرى الـسبـع والطير
أسـهَـر اعْـيـون اهـل المُدن بـالـنّـطـاره
ومـن طـوّع المـامـور بـالـسّـيـف والمير
عـن أيمـنـه شـرعَـه وسـيـفَـه يـسـاره
هـذاك ابـن عـمّـى وخـلّ الجـمـاهير
يـاخـو عُـمـر وِشْ جـابـنـا للعطـاره
الـرايـةَ الـبـيـضـا لهـل نـيـةَ الخير
مـادامـت الـعِـيـنين تِـرعـى سـمـاره

وهنا قال ابو الطيب: لله دره لقد رقى بقومه في أبياته هذه.

فأدركته: كلا.. بل انهم هم الذين رقوا به فجعلوه يفخر بهم.. وابن ربيعة قال هذه القصيدة رادا على قصيدة لابن لعبون(١) فخر فيها بقومه حيث قال:

حِـنّـا هَـلِ الـوادى وحـنـا المـنَـاعير
وحـنـا وَدِيـنـا جَـارنـا مـن اجـداره

١ ــ محمد بن حمود بن لعبون من أشهر شعراء عصره، ذاع صيته في الجزيرة العربية ينتمى قبيلة الوادعين من الدواسر، وسكن البحرين والزبير.

عن المجد انشد بنى يام وامطير

وانشد جماجم روسهم عند واره

خطلان الأ يدى كالأسود الهظابير

مقابس للحرب ومن شب ناره

منداتهم يشبع بها النسر والطير

بيوم تغبت شمسها في نهاره

حريبهم لو كان دونه نواظير

لابد ما يفجع صباح بغاره

ثم قلت: لقد انحدر إلينا التفاخر بالقوم والعشيرة من الأصول العربية الأولى، ثم حملتم لواءه إلينا، ولعلك من الذين غالوا في الفخر بأنفسهم أكثر من قولهم حتى جعلته تفاخرا وصل الى حد التشاجر مع أبى فراس فأخذها البعض نقيصة وسبة لعهد ازدهار الشعر.

فقال: أيام ومضت، ونحن البشر بطبيعتنا كثيرو التشكى من بعضنا البعض ثم نرمى زماننا بسهام التجنى.

وهنا تذكرت قول أبى الطيب:

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

واستدركت قائلا: لقد صدق الشاعر القائل:

هـــي الأ يـــام كـــمـــا رأيـتــهـــا دول

مـــن ســـره زمـــن ســـاعتــــه أزمـــان

وهـذا شـاعـرنـا الـعـونى[1] قد مسته يد الأ زمان السيئة فزجت به في السجن، فأطلق صيحة يقول:

يـافـزعـة المـظـلـوم منشـــى الخـيـال

يافـــارج الشـــدَّات لوهِـى ثـقـيـلـة

افـــرج لمـــن بـــالحــبـس دُونَـه رجـالى

وأبـــواب واقـفـــالٍ وحـصـــونٍ طـو يـلـة

في وســـط دبـــاب غـــريـــبٍ لحـــالى

أظـلـم ولا درِى وِشْ نـهـارَه ولـيـلـه

مـــتـــروك مـــالى مـــن يـــرد المـقـــالى

لا حــدٍ يـبِـى قــولى ولا حــدٍ يـشـيـلـه

وهـنـا قـال أبـو الـطـيب: نعم ظلمة السجن وظلمة الظلم كلتاهما مر مرارة الـرثاء، كيف لا وأنا أنعى نفس بنفس وأرثى لحالى ومازلت حيا، ولكنها بئس الحياة فالموت أهون منها وأخف وطأة.

فـتـدخـلـت قائلا: ولكن أليس فقدان الحبيب وموته أشد وطأة على القلب فـيـجـزع و يـنـزعـج، فـتحمل الكلمات هذه العواطف الجياشة عبر أشعار صـادقـة يـدوم تـنـاقـلـهـا بين الأجيال كشعر نمر بن عدوان(٢) يقوله لابنه عقاب:

١ ــ نمر بن عدوان شاعر متن الأسلوب جيد الصياغة، أثر في الجميع بشعره الوجدانى.

٢ ــ العونى هو أحد فحول شعراء النبط الذين ذاع صيتهم.

سـار الـقـلـمبالنـو يـهـدات الـصـغـارا

يـاعين.. وكـرى وحَّـــشْ حين مـا طـار

ثم هو يصف حاله قائلا:

مـــن ضـــامـــرٍ كـــنـّــه وقـــيـــدات نـــارا

مـا نـيـرةَ الـنـمـرود يـشـبـه لها نـار

على حـــبـــيـــبٍ بـــالـــترايـــب تـــوارا

خـــلانْ مـــشـــتـــاقٍ وحـــيـــدٍ ومحـــتـــار

ومازال يرى حسناءه تميس أمام ناظريه، فيصفها قائلا:

الـعُـنـق عُـنـق اللّي تـقـود الـعفـارا

قـايـد أخشُوف الـرّيـم في دو الأقـفـار

يـــاغـــصـــن مـــوز تحـــتـــه المـــاى جـــارا

في وســـط بـــســـتـــانٍ دنَـــت مـــنـــه الأ ثـــمـــار

ولم يزل على حاله يبكيها و ينتحب في شعره كله:

الـــبـــارحَـــة يـــوم الخـــلايـــق نـــيـــامـــا

بـيّـحـت مـن كُـثـر الـبُـكـاكُـل مـكـنـون

قـــمـــت أتـــوجّـــد وأنـــشُـــر المـــاء على مـا

مـــن مُـــوق عين دمـــعـــهـــا كـــان مخزون

وقد تذكر يوم موتها إذ يقول:

جـاه الـقَـضـا مـن بـعـد شَـهـرِ الـصـيـامـا

صـافي الجَـبين بـشـانـى الـعـيـد مـدفـون

شـمّـيــت ريــح امجـدَ لا تــه ومزيت
ضــواحــكٍ مــا قَـبلى احَـد لهـا ذاق
جـلـست أنا و يّاه في رَبعة البيت
سـقْوَى نـتـساقا بينـنا خَمر الأ رياق
واسـقـانى الشُهد المصفّى وعَلّيت
خمـرونـا اسـقـيـتَـه حليبٍ وتـرياق
يـوم ارجَــهَــنّ اصويحبى وارجهَنّيت
والــكُــل عُــقــب خَمـرِ الهَـوى فـاق
فـهـقــت راسَــه بـالجدايل وجَنيت
وردٍ على خـدّه كـمـا صَـافِ الأ وراق
رفَـعـت راسى للـكـواكـب ورَاعيت
ولين نــور الــصُــبــح بــادٍ للآفــاق
بـغـيـت اقـوم وشَـدّ رِدنـى وشدّيت
جِــيــده وحَبيتــه ثـمـانٍ على سـاق
وحـلـف عَليّ ان قُمت من ذا وشدّيت
إلا انـت مِـعطِـينى اعـهودٍ وميثاق
إنَــك تِـعـود إلى مِـنـك تِـقَـافِـيت
ولا لـغـيرى من هَوى البِـيض تـشتاق
واقــســمــت لــه بآيـات عَـمّ و بالبيت
والمـدّعـى واللّى رَفَـع سـبـع الأطبـاق

كسوه من بِيض الخَـرق ثوُب خاما
وقـامـوا عـليـه من التّـرايب يـهلون
راحـوا بـهـا حـروت صلاة اليـمامـا
عـنـد الـدفـن قـاموا لها الله يـدعون
بـرضـاه والجَـنـّة وحُـسـن الخِتـامـا
وادمـوع عِـيـنـى فـوق خدى يـهلّون
حــطــوه في قــبــرٍ عــساه الهـدامـا
في مـهـمـة من غُرب الأمـوات مَسكون
يـا حــفــرة يــسـقــى ثَـراكِ الغَمـامـا
مــزنٍ مـن الـرّحمة عـليـهـا يـصـبـون

لقد تأثر أبو الطيب كثيرا على ما يبدو حتى إننى توقفت ولم ينتبه.. فقد كان شارد الذهن.

فأدركته: والآن ستلقى روائع البيان في هذا الشعر وهو في الغزل فعجل أبو الطيب قائلا: نعم.. ما أحوجنى إليه بعد هذا النحيب الذى أسمعتنى.

قلت: لنأخذ أبياتا من قصائدلمحسن الهزانى(١).. يقول:

لـيـلة يجيـنـا الـسّـيل يَـازيـد وافيـت
موضِى الجَبين وسيـد تَـلعـات الأعـنـاق

١ ــ هو محسن الهزانى من الهزازية أمراء الحريق، من فحول الشعراء ولج جميع فنون الشعر فأجاد فيها. توفى أوائل القرن ١٣ هـ.

انّى فَلا غيرك من البيض هَاويت

ولانِى لغيرك من هَوى الغِيد باشتاق

ومازال الهزانى ــ ياأبا الطيب ــ يروم وصل الحسان، و يصفهن وصفا يتمايل مع تمايلهن.. فيقول:

القامة اللّى كَنّها الخَيْزرانى

ياطال ما ليّنت قَدّه وعَطّفت

نهارٍ له داعى المحَبة دعانى

وارتادنى لِوصال شفَه وساعَفت

من عُقب مانى ميس منه جانى

عليه تفتٍ كابعٍ فيه قلت: افت

قال: انتبه إن كنت للورد جَانى

واجنِ الثّمر يوم اننى لك تطرّفت

اغنم وقْم واجنِ النّمش من أوجانى

جزواك يوم إنك للأظعان وقّفت

شدّيت ردنه واصلح الترف شانى

بالحُب والتلمِيس والتَلّ والعِفت

وامن الثنايا اللى كما القحو يانى

لله دُر انياب شهدٍ تر شفت

قال: أبو الطيب: ان شعراءكم يتقلبون بين التلميح والتصريح، وربما كانوا للتصريح أقرب من شعراء زماننا.

قلت: كلا ان شعراء زمانكم كان بينهم السافر الكلمات الذى يعرى شعره بدرجة لم يكن لشاعر من شعراء النبط أن يجرؤ على فعلتها، ولكن شعراء النبط دقيقى الوصف وهذا لا يعيب الشعر النبطى في شيء. وسوف أثبت لك هذا من خلال طائفة شعرية أخرى في الغزل أيضا، فهذا سليم بن عبد الحى(١) يقول:

طرّب وشاهدنى من البيض مياس
عذب اللّمَا ما ورد فَاهه ولا بيس
لمّة اجعوده كنّها عِصم الأرماس
ضاوى دجاها والعَواتِق مقاييس
وصبح الضّيا من غُرته ياخُذ انفاس
يغنى عن القِنديل ان جِن خرميس
وشبهت في فاهَه مفالِيج الأضراس
مثل البَرَد واشْفَاه شُهرَة ملابيس
جم كما الياقوت ونْهُود جُلاّس
اثنين على مصقول صَدرَه جواليس
و يلا مشى لا يوجَع الأرض لا داس
و يزرى بعُود البَان وقت النسانيس
هذا هو المطلوب من جُملة الناس
وإن كان ماجَا معشر الحُب بليس

١ ــ سليم بن عبد الحي شاعر نبطى شهير، يعد من جيل الفحول.

ومن فحول شعراء النبط ابن لعبون الذى أجاد في أغراض عديدة، ولكنه كان ذا شأن في الغزل.

حينئذ قال أبو الطيب: إليّ به

فأجبته قائلا:

تِشكى الجفا من لابِسّات الخلاخيل
نجل العُيون معسّلات الأشافى
الفاضحات بحسنهن القناديل
والذّابحات ابدّلهن الزعَاف
من أهيف غصن بحُسنَه تهاويل
والخد كنّه بدرَ الانصَاف صافي
عرفَه سواة الليل غادٍ عَثاكيل
له فوق مَنبوز الرّدايف رِداف

وعلق أبو الطيب بقوله: ان شاعرك هذا حاذق متمكن في لغته وشعره.

قلت: إذن إليك هذه الأبيات التي حشد فيها بعض غريب اللفظ.. يقول:

باتِن حِذاى العَاذِلات الهَواهِى
في سَد بابٍ من بُحور الهَوى هِى
ركبن به يشدّن دودٍ على عُود
والنّفس ميدان الهَوى والهَوى هِى

عـلـيـه قـلـوبٍ عـشَـامـة تِـرامـى

تـكَسّر مـثـل تـكـسير الـقَـزاز

قـال أبـو الـطيب: مازال إحساسي بهذا الشاعر يطغى على الجانب اللفظى الذى مـازلـت أعـانـى مـنـه، ولكن هناك موسيقى ظاهرة تجعل الكلمات تنساب دون توقف أو صعوبة.

فقلت: سأختم شعر ابن لعبون بهذه الأ بيات:

يـاسـنين مَـضَـت مـثـل الحُـلـوم

كـنّـهـن في دار ابـن عـوّام عـام

على غـريـمٍ الـشوق يـشبـع منك يـوم

شـبـَعـة المِـسكين بـأيـام الـصـرام

أو تـلـمين الـشّـمـل لـمّ الهُـدوم

يـالـيـالى الـسَـعـد عـودِن بـالـتـمام

قـالـت: اللى فَـات مـا هـو بمـعـلـوم

ردتـه لـك وانـت سـالـم.. والـسلام

وعـقـب أبـو الـطيب قائلا: عليك الآن أن تلقى على أبياتا أخرى في الغزل أيضا. ولكن لشاعر آخر حتى يتبين لى مدى شاعرية ابن لعبون.

قـلت: إذن إليك ابيات عبد الرحمن البواردى[١] وهو شاعر مقتدر بليغ، حسن وصفه خاصة حينما يصف الحسان فيقول:

١ ـ عبد الرحمن البواردى من امراء قبيلة بنى زيد له قصائد رائعة في الغزل والحكمة و يعتبر شاعرا شقرا.

يــاحَــسَــايــف على الــعُــود الخضر
انــــكَسر في يمين اللّى حَــنَــاه
انــكسر جــعــل مــن جَــاب الخير
يــقــطــع الله مــن الــدُنــيــا رجَــاه
صــاحــبــى كــنّــه الــظّــبــى الــعَفر
وعســى الله يــــرعَــــى مـــن رعـــاه

وهذا محمد بن عبد الله القاضي(١) شاعر نجدى شهير له ديوان جمع فيه درر الشعر النبطى.. يقول فيه:

هــلا مــانــاص أو نــاحَــت حمــامــه
بــدّيجــور الــدّجــى بَــرقِ الــغــمــامــه
هــلا في خــط حــتّ هــو حــيــاتــى
ســعــةَ صــدَرى ومــوتِــي والــســلامــة
وقــبّــلــتــه بــعــيــنــى قــبــل افــلــه
وحــبّــيــتــــه وهـــو في يــد ســلامــه
وفــلّــيــتــه وفَــل الــطّــيــب وســرى
وفــيــه المِــســك مخــتــومٍ خِــتــامــه
وفي قصيدة أخرى يقول:

١ ـ ولد محمد بن عبد الله القاضي عام ١٢٢٤هـ في عنيزة. بعد من فحول الشعراء النجديين، كان سخيا كثير الكرم. توفى عام ١٢٨٥هـ.

باح الغَرام ونشّف الرّيق باللاهِ
يالاهي يلعب ولا هُو باللاهِ
ياعين باشواقِك اساليك بالله
حِيثي مناجي في هَواك الهواهِي
ذا سيل ديم أو نوا قِيط واكِف
يشق بجفونك وانا اشِلْ واكِف
فإن كان ترضين العمى لك وانا اكِفّ
ولا فدُ ورى من يدُور الدّواهِي

وهناك غزل رقيق لابن لعبون تكسوه مسحة حزن، وفيه يميل إلى أسلوبكم حيث يبدأ بالدعاء بالسقيا قائلا:

سقى غيث الحَياء مُزن تُهامي
على قبرٍ بتلعاتِ الحجاز
يعط به البختري والخزامي
وترتَع فيه طِفلات الجوازي
صلاة الله مني والسلاما
على من فيه بالغُفران فاز
عَفِيف الجيب ما دَاس الملاما
ولا وَقَف على طُرق المخَازِي
أبو زرقٍ على خَدّه علاما
تحلاّها كما نقش بـ غازي

غـــزيـــم بـــالهـــوى رُوحـــى
على طـــفـــلٍ قَـــطَـــف روحـــى
عـــبير المـــســـك خِـــنـّـــاتَـــه
وريـــحٍ فَـــاح بـــه روحـــى
روحـــى راح بِـــريـَـــاحـــى
كـــفَـــفْـــتَ الـــدَّمـــع بـــريـــاحـــى
وهـــبّ الهَـــجْـــر بـــريـــاحـــى
لـــيـــفشِي سر مـــفـــضـــوحـــى

وها هو يعطى الشعر لون آخر في هذه الأ بيات:

تـــعـــطَـــف يـــاظـــبـــى أجـــلّـــه
وخُـــضـــت الـــغَـــىّ مـــن اجـــلـــه
ألا يـــاســـيـــد ســـاداتـــى
صـــرُوف الـــدّهـــر عـــن اجـــلـــه
اجـــلـــه عـــن صـــدَى روحـــى
بـــشـــهـــدٍ فـــاح بـــه روحـــى
يـــطُـــو رق بـــالهَـــوى روحـــى
وعـــاقَ الـــقَـــلـــب في نَـــجـــلـــه

وحمل ابو الطيب الى استفهام في ظاهره، انتقاد في باطنه متسائلا: كأن أغراض الشعر ثابته بين شعرائكم.. كذلك أسلوبهم واحد.

فأجبته بقولى: إذن فلتسمع هذه الأبيات لابن سبيل ثم أرد على تساؤلك هذا:

قلت: آه واجُرحاه من خِلّتى آه
وان حمّلونى حِمل غَىّ قويته
قالوا: سَقَا بالحال ويش اللىّ غَواه
قلت: آه ويش المُنكر اللى وَطيته
قالوا: طلبنالك من الله معافاه
قلت: آه وحدَه وعفوَه رجيته
قالوا: هَلَه واحباب عينَه نصفحاه
قلت: آه هذا واردٍ بغيته
قالوا: نِشاش العُود مالَك بلاماه
قلت: آه عودَ المُوز بيَدى لويته
قالوا: نشوفَه عند هذا وهذاه
قلت: آه عُمرَه ما عَقّب حِجر بيته
قالوا: عَلِيل ناقلٍ دَاه بردَاه
قلت: آه باقرابى وروحى فديته
قالوا: كثير شيبك وقلبَك بعمَياه
قلت: آه لو قلبِى غريرٍ نهيته
مطاوعٍ قلبى بعجْفَاه وقدّاه
والى عطى منهَاج دَرب عطيته

يــانــاس خــلّـوا كــل وادى ومجـرَاه

قـلـتـوا كـثير وقـولـكـم مـا لقـيتـه

ثم عاجلته قائلا: والآن ما هوسؤالك ياأبا الطيب.

فرد قائلا: حقا.. إنه لعند جهينة الخبر اليقين، إليك سمعى وعقلى جميعا.

فانتـهزت فرصة استسلامه لألقى أبيات أخرى من أجود ما قال ابن السبيل:

عـدلٍ يـشـيـل الـشُـوب رِدفه إلى ثـار

مـا هـى مـن اللّى كُـبُـرها بـالمثـانـى

هـا في حـشـَـىكـنـّـه عـن الـزاد مختـار

وانـهـود مـثـل امـكـفّـيَـات الـصّـيَـانـى

الـعُـنُق عُنُق ادمـيـة تـرعـى ا لاقـفـار

أوحَـت حــسـاسى ورزتـه بـجـفـلانـى

والخد قـرطـاس الـعُـجم مـا بِـه اسطـار

في يــد خــطـيــب ونـاشـعّـه زعـفـرانـى

راعِـى ثـمـانٍ كـنّـهـن ضـيـق الأمـطـار

وإلى عــطَـانـى ريـع عـلّـم قـرانـى

خمـرٍ حـديـثـَه للـجـسَـد نـافـعٍ ضـار

بـغـيـت نـفـعَـه لين ضـرّه سـدانـى

وأعرب أبو الطيب عن استحسانه قائلا: ان هذا البيت سيد ما سمعت به حتى الآن من الشعر النبطى.

فقلت: يكفى ابن سبيل فخرا أنه صاحب هذا البيت الذى جمع فيه بين النفع والضرر في آن واحد.. وأكملت انشد شعر الرجل بعد ان اطربتنى كلمات أبى الطيب.

والخَشم سلة هندى صُنع بيطار
محفيه رد مليشمه ما يدانى
ومعلق فيه الزّميم بشِنكار
هنّى من وَرد الشَمانِ بثمانى
جملة وصوفَه نظف جيبَه من العار
ولا يشتِفى بهروجَه المستحانى
هذى وصوفَه واعذرونى بالاخيَار
ومن لا عَذَر لا ذَاق بَرد الجَنَانِى
ما اللى على المتن الشمالى بعذار
ويش انتَ شَايف يارقيب الحسانى
ان كان ما انْتَ بعاذرٍ عُقبمَا صار
بالله ويش اللى عليه تهدانى
قلت: الشريعة، قال: نار ابن عمّار
يبِينى ألحَسها وتحرّق لسانى
وهنا قال أبو الطيب: وبعد هذه النار، هل نال الوصل أم كعادتهن يكتوى بنارهن من رام القرب الود.

قلت: يجيبك ابن السبيل فيقول:

ما نيب من يضحَك على غير مَصْلُوح
يضحَك لخلان وهُم كارهينه
المقفى اقفى عَنّه لو كان مملوح
والمقبل انهض لُه شراع السفينة
سيد العذارَى كامل الزين مُملوح
والسِحر في مِقرن حجَاجَه وعينه

والكل يشكى لوعة الفراق.. فأليك قوله:

حَلّ الفُراق وحَنّ رَايم لمر يُوم
وقوى الفِراق اللّى كبارٍ دفوفه
والقلب جَار لُه سواميح وهمُوم
ومن القرادَه كل طارِى يلوفه
وحقه علىّ إلى هَرّجت أبعد الحوم
اغضِى ولا كنّى مع الناس اشوفه
انا الذى ياما تمنّاه من يوم
وهو الذى نفَسه لغيرى عيوفه
أبو نهيدٍ في حشَ الصدر مزموم
بيض الحمَام اللى دفاع قيوفه
والعين عين اللى على رَاس ملموم
ما جيب لَه من كل نِسر علوفه

حِرش المناكب لا براق الريش صيروم

حـر مـلـك مـوت الحَـبـارِى كفوفه

هـا في حَـشىَ كـنّـه عـن الزَاد محروم

والـشُـوب يِشكى ما نَبا من ردوفه

ويخاطب حسناء، بقوله:

يـاهـنّ ممـا يِـنـعِـش الروّح شِف لي

مـازال أنَـا مـوجـود والـنّـفس حيه

أنـا وجـيـع الـقَـلـب ما ينْعِرِف لى

مـا نـيـب رَاعـى الـعلّه الأ بـرحّيـه

يـاربـى انـك قـادر تـنـتـصـف لى

مـن واحـدٍ مـا غير زولـه نـحـيـه

غـروٍ تـسـبـب لى مـرامَـه بـقـتلى

بـجـيـدَه ومجـد ولَـه ونـجـلَـه وغـيـه

وهـو بين شـوق و بين، وتـوق للوصـل، وتـصـنـع الحـبـيـب تلتهب عواطفه فـتـكـشـف الـكـلـمـات عـن الخـبايا.. و يصور الواقع لترى ما بينه و بين حسنائه معاكسات فيقول:

والى بَـغـيـت اعـطـى طـريـق لَقَـف لى

وارخـى المِـلِـيـشَـم لين تبـدّى شـفـيـه

هـرّج ودرّج في خُـطَـاه وهَـتَـف لى

لين اسـمـعَـه لا سمـع صيـحـة نـبـيـه

والى بَـغـيـت اتـرُك مجـالـَه هتـف لى
وعَـوّدت لـه والـقَـلـب ركـب ردعيـه
يـبغـَى يعسيفنـى وهـومـا انعـسّف لى
خـطـيـّة يـاكُـبـرهـا مِـن خَـطـيـة
والى شَـكـيـت الحـال لـه مـا صَـخَـف لى
يـلـعـب بى الـشـطرنـج لا رَحَـم حيـه
وإلى بـغـيـت اشـرب ينَـف العـذف لى
يـبـيـنـى أشـرَب منـه شُـربة ضحـيـة
وحـرّف وذرّف مـعـلـق بـالـطـرف لى
وعـفَـا وعَـف وعَـاف ذَبْـحَـة خـو يـة
يـالـيـتـنـى مـا عـرف مـن لا ولـف لى
اللى سـلـم مـن عِـرفـهـم واهـنـيـه
وليس إلى كـل ذات حـسـن يمـيـل ود، فشاعرنا ليست كل حسناء هي حسناءه فانظره يقول:
شـرهَـه يـدى مـا كُـل عـودٍ تـعـصّـاه
ولا هــى على عُــوج الـعَـصى المحـدوده
المـطـرق اللى شَـافـنـى و يـن أبـا ألـقـاه
عـيـنـى لهـا طَـفْـحَـة وَنفسى شُـروده
ازوال واجــد مير مــا هِـى بمـشـهَـاه
الـنـفـس بـاقـف لَـه عيّـاف يـذوده

مـن ذاق حُب السَلْهَمه ما تنساه

مـن الـكُبر يـدبَح والهَوى لـه طـروده

ورحـت أقول: انه يصور لنا ما يظهر على محيا المحب من سعادة اذا ما رأى المحبوب:

للـحُـب في وجـه المـقـابـل مَـوارى

ضـحـك الحِجَاج ورفعتـه وانطلاقـه

خـض إلى لـقَـاك وجـهَـه نـحـارى

اشـرف على غَـايـة غَـلاه أو نـفـاقـه

وإلا مـن المـبـغَض تْشُوف العذارى

يـالـه مـذَاقـك وانـت تـالـه مـزاقـه

راعـى الهَـوى المعـتـاد يخفـى الأ ثـارى

إلى بـغـى لُـه رَمْـسـتـى بـانـسراقـه

ولا هـوب زهّـاف الى حَـال طـارى

يـفـرق على غـيـره بـعـقـلٍ ووثـاقـه

وتسـاءل أبو الطيب: ومن ذا الذي يستطيع اخفاء اندفاعه نحو الجمال.. فالعين تفضح وتفضح عما لا يبوح به اللسان وما ينبض به القلب.

أكدت موافقـتـى قائلا: نعم.. خاصة عندما يكون الحسن لا يقاوم كما يصفه شاعرنا:

الـعصر يـوم الـقصر مـالـت افـيَـاه

في سـوقـنـا الثّوب الحُـمر وقـفـت بـه

يجـر ثـوب الـبـز وآعـظـم بـلـَواه
لـو كـان قـلـبـى مَحَـل ربـعـت بـه
يـاتَـل قـلـبـى تَـلّـة الـعـزب لرشاه
على زعـاع حـايـلٍ صـدرت بـه
سـواقـهـا عـبـدٍ ضـربـهـا بمـحـداه
امـا امـرسـت بـرشـاه والا وَطـت بـه

وأخيرا يبين لنا الشاعر أن حالته النفسية مرتبطة بتصرفات حسناءه تجاهه اذ يقول:

أنـا الـذى ضـحـكـة سنَـانـى وسـنـى
بـقـفُـول مـا دوّر عـلـيـهـن مفاتيح
مـفـتـاحـهِـن بـخْـجَاح غـروٍ فَتَـنـى
فـردٍ لحـالَـه جـرّح الـقَـلـب تجريح

أبـو الطيب: ألا ترى معى أنه لا يختلف عن شعرنا الذى نقرضه سوى في عدم الإلتزام بقواعد النحو والصرف.

وزدت: نعم. ضف إلى ذلك بعض المفردات المستحدثة والدخيلة على اللغة العربية من جّراء إنتشار اللهجة العامية التي كان تأثيرها على الشعر النـبـطـى واضـح. وقـد ذكـر ذلـك الـعـلامة ابن خلدون في مقدمته، وابن خـلـدون يـاأبـا الـطـيـب من كـبـار عباقرة العلماء الذين جاءوا من بعد كم بـحـوالى سـتـة قـرون، ذكـر ابـن خلدون «أن الشعر من البلاغة ولا دخل

للبلاغة بالاعراب، والشعر متى كان مستقيما محتفظا بأوزانه فلا قيمة لحركات النحاة فيه» وقد سماه بالشعر البدوى.

أبو الطيب يعترضني قائلا: ولكن إذا كانت قالته قبائل عربية قديمة كما تزعم فلا ينبغي لنا إذن أن نعيب على اللهجات المستحدثة.

فقلت: إن الخلافات المستمرة بين القبائل، والبحث الدائم عن المراعى ومصادر المياه جعل هذه القبائل تبتعد عن بعضها البعض، وأصبحت كل قبيلة تسير بمفردها وتختار لها موقع جديد. هذا هو السبب الرئيسى لظهور لهجات مستحدثة قريبة من الفصحى التى ضعفت بدورها شيئا فشيئا بتفرق القبائل في تباعد أحدث تلك الفجوة.

وأستطردت قائلا: ثم إن لهجتهم لا تبتعد كثيرا عن الفصحى، فقط تضغم بعض الكلمات، أو تنطق بعض الحروف بنغمة جديدة، وتميز مخاطبة المذكر عن المؤنث ببعض الإضافات. ومن هنا كان الشعر النبطى يُكتب تماما كما يُقرأ فلا يلتزم في ذلك بقواعد اللغة بالإضافة إلى التسهيل على القارىء.

وهنا قال أبو الطيب: أرى أن شعركم النبطى هذا يلتزم تماما بالقافية، ولكن هل له بحور وتفاعيل..؟

فأجبته: نعم. إن الشعر النبطى ليس هناك تفاعيل لبحوره، بالرغم من أن بعض هذه الأ بحر يمكن وزنها على تفاعيل الشعر القديم، إلا أن

شعراء النبط يزنون قصائدهم بالغناء و يكون الغناء على نفس البحر الذى نظمت منه القصيدة.

وعلى الرغم من اعجاب أبا الطيب بالشعر النبطى إلا أن له بعض التحفظات على الشعر الحر إذ يقول: ان من عيوب الشعر الحر أن فيه مروقاً على قواعد وأصول الشعر كما أورثناها لكم، وورثناها عن علماء اللغة والشعراء الأقدمين. وإن هذا الشعر يبعد اصحابه في بعض الأحيان عن لغة الضاد مما يورث الفقر اللغوي لدى العامة.. وانفعل الرجل حتى أنه لم يأبه لما يحدث بالطائرة أو يعيره أى إهتمام.

وذهبت أدخل على نفسه الفرح والمرح، وأخرجه من هذا الهدوء الواجم فقلت: سيف الدولة الحمداني..

فالتفت نحوى سريعا.. وقال: أين هو..؟

فقلت له: هو حيث هو، في الشهباء.. أخبرنى ياأبا الطيب عن سيف الدولة وشمائله، و بدر بن عمار وخصائله، وأبى العشائر ومناقبه.

وهنا انفرجت اساريره، وتسابقت ابتسامة كست وجهه، وتنامت الغبطة على محياه.

ثم قال: هؤلاء هم الرجال.. هكذا تكون الرجال فهّلا عرفتهم وأنشد:

ومـن تـكـن الأسـد الضـوارى جـدوده
يـكـن لـيـلـه صـبـحـا ومـطـعـمـه غـصـبا
ولـســت أبـالى بـعـد إدراكـى العـلا
أكـان تـراث مـا تـنـاولـت أم كَسْبَا
فـرُبّ غـلام عـلـم المـجـد نـفـسـه
كـتـعـلـيـم سيـف الدولة الطعن والضر با
إذا الـدولـة اسـتـكـفـت بـه في مـلـمـة
كـفـاهـا، فكان السيف والكف والقلب

حتى بلغ قوله:

فـمـن كـان يُـرضى اللؤم والـكـفـر مُلكه
فـهـذا الـذى يُـرضى المـكـارم والـرّب

ومـال نحوى قائلا: لقد مدحته بما رأيته فيه، ولم يكن مدحى نفاقا أو مداهنة.. فاسمع:

يـاأكـرم الأكـرمين يـامـلـك الـــ
أمـلاك طُـرّا يـاأصـيـد الـصـيـد(١)
ورمـيـك اللـيـل بـالجـنـود وقـد
رميت أجـفـانـهـم بـتـسـهـيـد

١ ــ الصيد: جمع أصيد، وهو كل ذي حول وطول من ذوى السلطان.

أول حـــرف مــن اسـمــك كــتـبــت

سـنـابـك الخـيـل في الجـلامـيـد([1])

وسـألـتـه: ولـكـن أخبرنى كيف وصلت إلى سيف الدولة..، ما هى قصة اللقاء.

اعـتـدل أبـو الـطـيـب قليلا ثم قال: لقد كنت في مجلس أبى العشائر، وحـل عليه سيف الدولة الحمدانى ضيفا، فقدمنى إليه أبو العشائر، وطلب منى أن ألقى فيه قصيدة.

فقلت.. والحديث لم يزل لأ بى الطيب: نعم.. ولكن لى شروط

فرد سيف الدولة متعجباً: شروط..!! وما هى شروطك..؟

قـلـت: أمدحك ولكن جالسا، وكانت عادة شعراء زماننا أن يمدحون الملوك وهم وقوف بين أيديهم.

فأجابنى سيف الدولة قائلا: لك شروطك

وتـدخـلـت قائلا: وهنا علق أبو فراس بقوله.. ومن تكون حتى تفرض على أميرنا شروطك

فـتأوه أبو الطيب و بصوت يعتصره الأسى قال: نعم.. ومن هنا بدأت الدسائس.. والحسد.

١ ــ السنابك: جمع سنبك، وهوطرف الحافر. والجلاميد: الصخور.

فعدت بالحديث الى سيف الدولة مرة أخرى: وهل بالفعل مدحته قاعدا كما أردت..؟

قال أبو الطيب: نعم.. بل و بقية أيامى معه لم أمدحه إلا جالسا. ومنذ تلك الساعة صاحبت سيف الدولة في مجلسه، وحروبه، في السرّاء والضراء. وكنت أول المهنئين حينما انتصر على الدمستق، ألم تسمع قولى:

يـكـلـف سيـف الـدولـة الجيـش همـه
وقـد عـجـزت عـنـه الجيوش الخضارم(١)
و يطلب عند الناس ما عند نفسه
وذلـك مـا لا تـدّعـيـه الضـراغـم(٢)

قاطعته قائلا: من يسمعك يقول أنك لا تعرف سوى سيف الدولة ولم تقرض شعرا سوى في مدحه.. وكأنك لا تجيد سوى المدح.

فرد ضاحكا: ان الرجال الصناديد أمثال سيف الدولة يكثر فيهم المدح لأنك لا تملك حيالهم سواه. ورغم كل هذا فقد سار عنده الوشاة والحاسدون وكادوا لى شر مكيدة حتى فارقته صبرا على الأحداث لا كرها لشخصه.

قلت: وماذا..؟ ترددت في إكمال السؤال وحاولت صرف الحديث

١ ـ الخضارم: جمع خضرم، وهو الكثير من كل شيء.
٢ ـ الضراغم: جمع ضرغام، وهو الأسد.

إلى جهة ثانية ولكنه أدرك ذلك..

فسألني: ما الذى ماذا..؟

أجبته في شيء من الحذر: ماذا حدث بينك و بين أبى فراس؟ وأردفت: إن أبا فراس يحظى بكثير من المعجبين والمناصرين في زماننا وخاصة قصيدة له يتغناها الناس يقول في مطلعها:

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمر

ثم قلت: إن المؤرخين يقولون أن الشعر بدأ بملك وانتهى إلى ملك والأول يقصدون به امرىء القيس، أما الثاني فهو أبا فراس الحمداني الذي يقولون عنه أنه يتمتع بحس مرهف، امتاز شعره بالكلمات الرصينة، والاسلوب الغنائي الذي لا تعترضه لفظة نائية أو كلمة مضطربة أما قوافيه فهى مكينة رزينة مطمئنة في موضعها.

وسألته: ألهذا كنتما دائما على خلاف؟ أم إنه الكبر..؟؟

فرد أبو الطيب: لست متكبرا، وإنما هى عزة النفس والإباء وهذه هى شيم أحرار العرب. ثم سكت وكأنه لا يريد الخوض في هذا الحديث. ولكنى لم أسكت.. فقلت: ولكن عشاق الشعر يحقونك حقك، و ينزلونك منزلتك بشاعريتك العميقة الفياضة، وثقافتك الواسعة.

وأبو الطيب مازال صامتا وكأنه لا يريد أن يتجرع مرارة تلك الأيام

مرة ثانية. ولكنى أردت استنفاره ليكمل قصته مع أبى فراس فرحت أنشد شعرا لأ بى فراس يخاطب فيه ابنته قائلا:

أبـــنـــيـــتـــى الا تجـــزعـــى
كـــل الأنـــام إلى ذهـــاب
نـــوحـــى على بـــحـــســـرة
مـــن خـــلـــف ســـترك والحـجـاب
قـــولى إذا نـــاديـــتـــنـــى
وعـــيـــيـــت عـــن رد الجـــواب
زيـــن الـــشـــبـــاب أبـــو فـــراس
لـــم يمـــتـــع بـــالـــشـــبـــاب

وهـنـا.. قـال أبـو الطيب: إسمع، لقد استطُعت إستنفارى وسأروى لك حقيق ما وقع بينى وأبى فراس في حضرة سيف الدولة:

إن أبا فراس الحمدانى قال ذات يوم لسيف الدولة:

إن هـذا المتـشدق وهو يعنيني كثير الادلال عليك، وانك لتعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرق مئتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره..

ثـم أخـذ يعيد لف عمامته بعناية.. وقال: وتأثر سيف الدولة من هذا الـكلام وعمل فيه، وكنت يومئذ غائبا، فلما حضرت ودخلت على سيف

الدولة. أنشدته بعض أبيات، ولكنى وجدته مطرقا ولم ينظر إلىّ كعادته..

وسرعان ما عرفت سبب إعراضه عنى عندما حضر أبو فراس وجماعة من الشعراء و بالغوا في الوقيعة بيني و بين سيف الدولة، وقصدوا تجريحى في حضرة سيف الدولة الذى تركهم يعبثون، ولم يقتص لى.

انقطعت بعدها عن مجلسه فترة من الزمن نظمت فيها قصيدتى «واحرّ قلباه..».

سـيـعـلـم الجمع ممن ضم مجلسنا

بـأنـنـى خير مـن تـسـعـى بـه قـدم

وحـيـنئذ ثار أبو فراس قائلا: ويحك يارجل..!! لقد نسبت الفخر كل الفخر لنفسك، ما الذى بقى ـ اذن ـ لأميرنا تمدحه به؟

وهـنا صمت أبو الطيب طويلا، ولكنى لم أتركه لصمته فسألته: وما الذى حدث بعد ذلك..؟

رد أبـو الـطـيـب: لـقد قذفنى سيف الدولة بدواة كانت بين يديه شُجَّ على أثرها رأسى.

وذهبت أحاول: إخراجه من دائرة الذكريات الأليمة.. فسألته:

بالطبع لم تترك الأمر يمر هكذا... بماذا كان ردُّك؟

فقال أبو الطيب:

إن كـان سَـركـم مـا قـال حـاسدنا

فـمـا لجـرح، إذا أرضـاكـم ألـم

واعترضنى ـ أيضا ـ أبو فراس بقوله: وهذا سرقته من قول بشار:

إذا رضـيـتـم بـأن نـجـفـى وسـركـم

قـول الـوشـاة فلا شكـوى ولا ضـجـر

وأردف أبو فراس ومثله قول ابن الرومى:

إذا مـا الـفـجـائع أكسبتنى رضا
لك فـمـا الـدهـر بـالـفـاجـع

وقال أبو الطيب: وهنا ادرك سيف الدولة حقيقة الموقف، وأن المنافسة اتخذت طابعا آخر، وأعجبه البيت الذى قلته، ورضى عنى في الحال، وأدنانى منه، بل وقبّل رأس ثم أجازنى بألف دينار، وأردفها بألف أخرى نكالا في الوشاة والحاسدين.

وعقبت قائلا: لا عليك ياأبا الطيب، لقد اقتص لك أحد شعراء[1] زماننا، فقال في هذه القصة:

لـم تـرض يـومـا في حـيـاتـك مـوقـفـا
يـعـلـوه في الـدنـيـا لـغـيـرك مـوقـف
الأ بـيـض الـطـمـاح لـم تحـفـل بـه
لمـا رمـى.. والأسـود المـتـعـسـف[2]
كـنـت الـعـزيـز الحـر يـكـرم نـفـسـه
و يـعـاف مـنـزلـة الـذلـيـل و يـأنـف

وأظنك لن تترك الموقف يمر بسهولة، فلابد أن تقتص لنفسك وشعرك في ذات اللحظة..

وهنا ضحك أبو الطيب، وقال هو ذلك.. وأنشد:

١ ــ هو الاستاذ أحمد محرم.
٢ ــ الأ بيض الطماح: سيف الدولة: والأسود المتعسف: الحبر الذى كان بالدواة.

أنـا الـذي نـظـر الأعـمـى إلى أدبـي
وأسـمـعـت كـلـمـاتـي مـن بـه صـمـم

فسألته: وماذا تم بعد ذلك؟

قـال أبـو الـطـيـب: لـقـد ازداد أبـو فراس غيظا، وعاد يتهمني بسرقة الأ بيات من عمرو بن...[1] لا أذكر اسمه، في قوله:

أوضـحـت مـن طرق الآداب ما اشتكلت
دهـــرا وأظــهـرت إغـرابـا وإبـداعـا
حتـى فـتـحـت بـإعـجـاز خـصـصـت بـه
لـلـعـمـى والـصـم أبـصـارا وأسـمـاعـا

وأضـاف أبـو الـطـيـب: فـاعـرضت عنه، ولم احفل به وذهبت ألقى قصيدتي:

أنـام مـلء جـفـونـي عـن شـواردهـا
و يـسـهـر الخـلـق جـراهـا ويختـصـم
وجـاهـل مـدّه في جـهـلـه ضـحـكـي
حـتـى أتـتـه يـدٌ فـرّاسـةٌ وفـمُ

حتى بلغت قولي:

ومـرهـف سـرت بين الجـحـفـلين بـه
حـتـى ضـربـت ومـوج المـوت يـلـتـطـم

١ ــ هو عمرو بن العروة بن العبد

الخـيـل والليـل والـبـيداء تعـرفـنـى

والـسـيـف والـرمـح والـقـرطـاس والـقلم

وهـنـا تـقـطـب جبين أبـو فـراس، وجحظت عيناه يتطاير منها الشرر وقـال: تـفـخـر بـنـفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير، أما سـرقـت هـذا مـن الهيثم بن الأسود النخعى الكوفى المعروف بأبى العريان حين قال:

أنـا ابـن الـفـلا والطعن والضرب والسرى

وجــرد المــذاكــى والـقـنـا والـقـواضـب

هـذا كله ولم يتدخل سيف الدولة فقد لزم الحياد بين ما كان منه من أمر الدواة وأنشدت أقول:

ومــا انــتــفــاع أخــى الـدنـيـا بـنـاظـره

إذا اسـتــوت عــنــده الأنــوار والـظـلـم

وعقب أبو فراس: وهذا مسروق من قول معقل المعجلى:

إذا لــم أمــيــز بين نــور وظــلــمــة

بـعـيـنــى فـالـعـيـنـان زور و بـاطـل

مثله قول محمد بن احمد بن أبى مرة المكى:

إذا المـرء لـم يـدرك بـعـيـنـيـه مـا يـرى

فـمـا الـفـرق بين الـعـمـى والـبـصـراء

وقـال أبـو الـطيب: ألا ترى أنه يناقض نفسه، يرمينى بسرقة الأ بيات لمجرد أن الفكرة مشابهة لفكرة الآخرين، إنه - إذن - على حد قوله لابد أن

يكون أحد الشاعرين السابقين اللذين استشهد بهما قد سرق أحدهما من الآخر.

ألا قاتل الله الفتن..

ولكن قل لى ياأبا الطيب ـ سألته ـ ماذا قلت في أبى العشائر..؟.

انفرجت أسارير الرجل، وكست وجهه ابتسامة، وهو يقول:

أراك لا تشبع من الشعر.. هل هذا مع سائر الشعراء أم شعرى فقط؟

قلت: إننى أحب الشعر بصفة عامة، الشعر الطيب، ولكننى أفضل دائما شعر أبى الطيب.

قال: فأسمع ـ إذن ـ شعرى في أبى العشائر:

ليس إلا أبا العشائر خلق
ساد هذا الأنام بإستحقاق
طاعن الطعنة التى تطعن الفيـ
ـلق بالذعر والدم المهراق(١)
ضارب الهام في الغبار ومايـ
ـهب أن يشرب الذى هو ساق

وأردف: إن له فرسٌ ما فوقها فرس.. اسمع

١ ــ المُهرَاق: المصبوب

فـــوق شـــقـــاء لـــلأشـــق مجـــال

وبين أرسـاغـهـا وبين الـصـفـاق(١)

مـــا رآهـــا مـــكـــذب الـــرســـل إلا

صـدق الـقـول في صـفـات الـبـراق

واضاف قائلا: لقد كانت لأبي العشائر صولات وجولات.. أتدرى ماذا يفعل في غزواته..؟.

كـم ثـراء فـرجـت بـالـرمـح عـنـه

كـان مـن بـخـل أهـلـه في وثـاق

والـغـنـى مـن يـد اللئـيـم قـبـيح

قـدر قـبـح الـكـريـم في الإمـلاق

ليس قولى في شمس فعلك كالشـ

ـمس ولكن كالشمس في الإشراق

شـاعـر المـجـد خـدنـه شـارع اللـ

ـفظ كلانا رب المعانى الدقاق(٢)

لـم تـزل تـسـمـع المـديـح ولـكـن

صـهـيـل الجـيـاد غير الـنـهـاق

لـيـت لى مـثـل جـد ذا الـدهـر في

الأدهـــر أو رزقـــه مـــن الأرزاق

١ ـ الشقَّاء: مؤنث الأشق: وهو طويل القوائم من الخيل.

٢ ـ الخدن: الرفيق والصديق

ووجهت رأسى إلى الجهة الأخرى.. وتمتمت كيف.. كيف..؟

فسألنى: ما هو الذى.. كيف..؟ عم تتساءل..؟.

قلت: لا عليك.. لا شيء.. لا شيء، أكمل

فاستمر: أنت فيه وكان.. ثم قطع شطر البيت وقال: أكمل.. ما الذى أكمله، لن أكمل شيئا حتى أعرف لماذا تلوى رأسك، وتشيح عنى بوجهك وأنا أنشدك شعري..

وأضاف: هل فرضت عليك شعرى..؟ أم أنت الذى طلبت ذلك؟

فأجبته على سؤال بسؤال: كيف تقاسم أبا العشائر بطولته؟

كيف تسوي بين المجد واللفظ..؟

ومضيت قائلا: لك أن تفخر بنفسك كيفما شئت، ولكن ليس إلى حد مساواتك بين الشاعرية والبطولة. صحيح أن صاحب المجد وصاحب اللفظ إن تقاسما الدور والهمة في القتال ألفيا النصر أمامهما، ولكن القياس مع الفارق، إذ أن قتال المجد فيه إراقة دماء، ينتظرك كأس الموت بينما قتال اللفظ لا يعدو مُرّ الهجاء.. أم أن لك رأياً كقول أبى الفتح البستى:

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة
مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وعاجلته قائلا: ألم تعلم بأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.. فقال لا عليك يارجل فالحق قوياً مهما حاولنا اخفاءه وأنشد يقول:

مازالت أضحك إبلى، كلما نظرت
إلى من اختضبت أخفاقها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها
ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامى قوائل لى
المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به
فإنما نحن للأسياف كالخدم

ثم ربت على كتفى قائلا: لقد كنت محقا ياصديقي، فالحق أحق أن يُتَّبع، وقلت له: أما الآن فقد جاء دور الحديث عن بدر بن عمار.

قال: لك ذلك، ولكن أود أن أذكر ابن جنى الذى أخشى أن أغبنه([1]) حقه، وهومن هو في النحو، وقد كان يحضر إلىّ في حلب كثيرا، إن بينى و بينه صحبة ومودة، فكنا نتناظر في النحو، والرجل قد شرح شعرى ونبه إلى معانيه الخافية على الناس. وقد كنت أذكره على ملأ من

١ ــ أغبنه: أظلمه وانقصه حقه.

الناس، وأذكرهم بأنه لا يعرف قدره كثير منهم، وأنه أعرف بشعري حتى مني..

وعدت لأذكره ببدر بن عمار ثانية.. ولكنه فاجأني بقوله: أعرف ما ستذكرني به، نحن معشر العرب نريد أن يتم كل شيء على وجه السرعة، كفانا عجلة ولنتريث.. وأردف: إنه الحماس.. نعم الحماس.

واسترسل قائلا: لقد اتصلت ببدر بن عمار وهو آنذاك والى طبرية اتصالا وثيقا، وكان ذلك قبل لقائي بسيف الدولة، ومكثت معه قرابة عامين قربني منه، فمدحته غير مرة..

قلت: أما تسمعني شيئا من ذلك..

قال: صبرا..، وأنشد:

إنما بدر بن عمار سحاب
هُطُلٌ فيه ثواب وعقاب
إنما بدر رزايا وعطايا
ومنايا وطعان وضراب(١)
ما يحيل الطرف إلا حمدته
جهدها الأيدى وذمته الرقاب

١ ــ رزايا: جمع رزيه وهي المصيبة و يقصد انه مصيبة على عدوه في النزال.

مـا بـه قـتـل أعـاديـه ولـكـن

يـتـقـى إخـلاف مـا ترجـو الـذئـاب

و يضيف أبو الطيب: إن ابن عمار رجل فريد الطراز في تكوينه.. وعاد

فـدتـك الخـيـل وهـى مسومـات

و بـيـض الهـنـد وهـى مجـردات

وصـفـتـك في قـواف سـائـرات

وقـد بـقـيـت وان كـثـرت صـفـات

أفـاعـيـل الـورى مـن قـبـل دهـم

وفـعـلـك في فـعـالـهـم شـيـات(١)

وسألته: وكيف كنتم تقضون أوقات الليل..؟

فأجاب: في اللعب أحيانا، ففي ذات ليلة ونحن مستغرقين في لعب الشطرنج هطل مطر غزير، فاضطررت إلى مفارقته حتى نلتقى في الصباح فقلت:

ألـم تـر أيـهـا المـلـك المرجـى

عـجـائـب مـا رأيـت مـن الـسـحـاب

تـشـكـى الأرض غـيـبـتـه إلـيـه

وتـرشـف مـاءه رشـف الـرضـاب(٢)

١ ــ الدهم: الداكنة الحمرة. وشيات: جمع شية وهي لون يخالف بقية لون الجلد كالغرة والتحجيل.

٢ ــ الرُّضاب: الريق

وأوهـــم أن في الـــشـــطــرنـــج همـــى

وفـــيـــك تـــأملى ولـــك انـــتـــصـــابـــى

ســـأمضى والـــســـلام عـــلـــيـــك مـــنـــى

مـــغـــيـــبـــى لـــيـــلـــتـــى وغـــدا إيـــابـــى

وأردف: والحق أننى كنت أجلس معه إلى آخر الليل ولا أريد فراقه.. ثم قال:

مضى الليـل، والفضل الذى لك لا يمضى

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

على أنـــنـــى طـــوّقـــت مـــنـــك بـــنـــعـــمـــة

شـهـيـد بـهـا بعضـى لـغيـرى على بـعض

ســلامُ الــذى فـوق الـسـمـاوات عـرشـه

تُــخــصّ بــه يــاخير ماش على الأ رض

ثم قال: والآن سألقى عليك بيتا هو بمقدار قصيدة كاملة تصور حر با ترى فيها مقدار فروسية بدر وفعاله في الحرب.. فأسمع:

طـاعــن الــفـرسـان في الأحـداق شـذرا

وعــجــاج الحــرب لــلـشـمـس نـقـاب

فقلت: لله درك يابدر.. ضن الزمان أن يجود برجال مثلك، والله ياأبا الطيب إنى لأتمنى أن تكون الجند في زماننا لا يشغلنهم عن القتال والجهاد شيء من شواغل الدنيا حتى ليكون الجندى قائدا، والقائد جنديا يألفون القتال و يصارعون غير مبالين بالسياسة أو الرئاسة.

وعقبت: لقد أجهدتمونا ياأبا الطيب، فقد أتى فرسانكم كل شيء في الإقدام والشجاعة والصلابة، بل والكرم أيضا أبليتم فيه حتى صار خلفاؤكم يحاكون فعالكم ولا يرقون إلى مستواها.

ثم قال أبو الطيب: لقد ذكرتني بمساور بن محمد الرومي حينما تحدثت عن الكرم، لقد كان الرجل معطاءا جوادا سخيا في كرمه.. لذا أنشدته هذه:

نفديك من سيل إذا سئل الندى
هولٍ إذا اختلطا دم ومسيح(١)
لو كنت بحرا لم يكن لك ساحل
أو كنت غيثا ضاق عنك اللوح(٢)
وخشيت منك على البلاد وأهلها
ما كان أنذر قوم نوحٍ نوحُ
إن القريض شجٍ بعطفي عائذ
من أن يكون سواءك الممدوح(٣)

قلت: أحسنت والله ياأبا الطيب، إنك لتطوِّع الكلمات كما تريد فتصوغ لنا صورا شعرية ما سبقك إليها أحد من الشعراء.

١ ــ الندى: الجود. والمسيح: العرق.
٢ ــ اللوح: الجو.
٣ ــ شج: حزين.

وأضفت: والآن لنذهب من هنا إلى قطر آخر..

قال: أين..؟.

قلت: إلى مصر.. حيث كافور الإخشيدي، أريد أن أستوضح أمرا..

فسألنى: ما هو..؟.

أجبته: ستعلمه في حينه.

جلست مطرقا من ينظر إلىّ يظننى صامتا، ولكن في داخلى رحى تدور بقوة وعنف.. حجرها العلوى هو مدح كافور، تلك القصائد التى قالها فيه أبو الطيب.. والحجر الآخر هو ذلك الهجاء المر الزعاف الذى قاله أيضا أبو الطيب في كافور، ومازلت أسترجع مدحه حيث يقول:

أنا اليوم من غلمانه في عشيرة
لنا منه والد يفديه ولده
فإن لا تكن مصر الشرى أو عرينه
فإن الذى فيها من الناس أسده
وأتعب خلق الله من زاد همه
وقصر عما تشتهى النفس وجده

ومازال مدح كافور يقرع أذنى..

وأمضى سلاح قلد المرء نفسه
رجاء أبى المسك الكريم وقصده

همــا نــاصــرا مــن خــانــه كــل نــاصر
وأســرة مــن لــم يــكـثـر الـنـسـل جـدّه

فرحت أردد في نفسى أصداء ما سمعت حتى بلغت قول أبى الطيب:

ولـيـتـك تـرعـانـى وحـيـران مـعـرض
فـتـعـلـم أنـى مـن حـسـامـك حـدّه

وأخذت أردد البيت بصوت مرتفع قليلا، وعلا صوتى دون قصد فتنبه أبو الطيب وسمعه.. فقال: أعجبك هذا البيت..؟.

فقلت مجاملا: نعم.. نعم فأخذ يكمل القصيدة معى، تارة أبدأ أنا بالشطر الأول وهو يكمل، وأخرى يبدأ هو ثم أكمل أنا، وتارة أقول البيت كاملا.. وأكمل بالبيت الذى يليه.. ثم صار يقول الأبيات الواحد تلو الآخر.. و يهز رأسه مسرورا بشعره، و يتمايل طربا وأنا في غاية الوجد والألم، بل والحسرة عليه، فهو قد قضى نحبه، وأنا أفجع في أمره..!!

ثم حدثت نفسى قائلا: ليته لم ينظمها.. لم يته لم يقل شعرا في كافور مطلقا، ليس هذا هو الشاعر الذى أحببت، و به أولعت، فقد وضع مدحه في غير مكانه وطرقته على صدره، ثم جذبته من قميصه حتى يفيق من غفلته.. قائلا له: كلا.. بل: نامت نواظير مصر عن ثعالبها.. وكأننى فجرت فيه بركانا، فأخذ ينشد، وكله غيظ قائلا:

إنــى نــزلــت بــكــذابين ضــيــفــهــم
عــن الــقــرى وعــن الــترحــال محدود

جــود الــرجــال مــن الأ يــدي وجــودهــم
مــن اللــســان فــلا كــانــوا ولا الجــود

مــا يــقــبــض المــوت نــفــسا مــن نــفــوسهم
إلا وفي يـــده مـــن نـــتـــنـــهـــا عـــود

أكـــلـــمـــا اغـــتـــال عـــبـــد الـــسوء سيـــده
أو خـــانـــه فـــلـــه في مصر تمـــهـــيـــد

ووصل الى البيت الذى استنفرته به.. فصاح:

نــامــت نــواظير مصر عــن ثــعــالــبــهــا
فــقــد بــشــمــن ومــا تــفــنــى الــعــنــاقيد(١)

صـــار الخصى إمـــام الآبـــقين بـــهـــا
فــالحــر مستعـــبـــد والــعــبــد معــبــود

وأطبق أسنانه غيظا وهو يقول:

الـــعـــبـــد لـــيــس لحـر صــالـــحٍ بــأخ
لـــو أنـــه في ثـــيـــاب الحـــر مـــولـــود

وقال: ألا أخبرك عن كيفية معاملة أمثال كافور.. وأنشد:

١ ــ النواظير او النواطير: جمع ناظر هو ناطر، وهو الذى يحفظ الكرم والنخل، و يريد به هنا السادات الكبار. والثعالب: العبيد. و بشمن: أى شبعوا، ونفرت أنفسهم عن الطعام فعاثوا في الأموال، وجعل العناقيد مثلا للأموال.

لا تشترى العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد(١)

وأن ذا الأسود المثقوب مشفرة
تطيعه ذى العضاريط الرعاديد(٢)

فقاطعته قائلا: ولكن لم كل هذا الهجاء اللاذع، بعد المدح الكثير الذى مدحته..؟ وهو الذى أغدق عليك المال والذهب إغداقا..

فرد قائلا:

وما رغبتى في عسجد أستفيده
ولكنها في مفخر استجده(٣)

فأردفت مسرعا: إذن .. هى الولاية التى طلبتها

فرد: كلا.. كلا

فأصررت على قولى بشىء من الحدة والحزم: بل الولاية التى أردتها، والتى رمتها قديما بين الأعراب.. ألم تقل:

وإنما الناس بالملوك ومـــ
ـــا تفلح عرب ملوكهم عجم

١ ــ الناكيد: جمع منكود: وهو الغير محمود المجىء.
٢ ــ العضاريط: الأتباع، وقيل الأجير الذى يخدم بطعام بطنه، وأحدهم عضروط. والرعاديد: جمع رعديد وهو الجبان والرعديد أيضا المرأة الرَّخصة.
٣ ــ العسجد: الذهب

وقلت:

سادات كل أناس من نفوسهم
وسادة المسلمين الأعبد القزم

وأضفت: إذن يجب أن يكون الملوك من العرب([1])، فلتكن أنت الملك ألم تلمح بذلك وأنت تطوف بالبلاد حين قلت:

يقولون لى ما أنت في كل بلدة
وما تبتغى؟ ما ابتغى جل أن يسمى

إذا قل عزمى عن مدى خوف بعده
فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما

وإنى لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

ثم قلت: إنك إذا رُمت مُلكا وسلطانا فابرز بين قومك بالفروسية وعظائم الأعمال لا بالقصائد والأشعار، وقولك:

أى محل أرتقى؟ أى عظيم أتقى؟
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتى كشعرة في مفرقى

هذا القول لا يليق بطالب زعامة، ثم بعد ذلك تذهب إلى مصر..

١ ـ وان كنت اوافقه الرأى أن الملك يجب أن يكون حصرا على العرب و بذات في بيوته المعرفه وكذلك الرئاسة فكما ورد قديما خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام.

وأنت تعلم كيف اعتلى كافور الحكم فيها بعمل وضيع(١)، وتطلب منه ولاية.. فنقول:

فـــارم بـــى مـــا أردت مـــنـــى فـــإنـــى
أســـد لـــقـــلـــب آدمـــى الـــرواء

وفـــؤادى مـــن الـــمـــلـــوك وإن
كـــان لـــســـانـــى مـــن الـــشـــعـــراء

ثم تصرح بمرادك علانية.. فتقول:

إذا لـم تـنـط بـى ضـيـعـة أو ولايـة
فـجـودك يـكـسـونـى وشـغـلـك يـسـلـب

ومازلت احمل عليه: لا يبلغ الناس السؤدد هكذا، ألم تقرأ سيرة عنترة بن شداد وهو الذي اتخذته عبس عبدا.. ثم أصبح فارسها المغوار، وانتزع السؤدد ألم تسمع لأ بيه وهو يقول: إن الحرية تنتزع انتزاعا ولا تلقى للناس كما تلقى العظام للكلاب.

واستطردت قائلا: كيف لم تتعلم كل هذا، وأنت الذى تربى لسانه في البادية ورضع منهم ثقافة واسعة عن الأ ولين.. كيف؟.

إذن لم يخطىء كافور حينما قال لمن تدخل لك عنده: «أما يدّعى المملكة بعد كافور من ادّعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم».

١ ـ الثابت في كتب التاريخ أن كافورا استولى على حكم مصر بعد وفاة سيدة الاخشيد، الذى اشتراه وقربه عنده، واستغل كافور موت الاخشيد فاغتال ابنه الصبى القائم على عرش مصر خلافة لوالده، واستولى على حكم مصر.

وهنا هب أبو الطيب صائحا:

جوعان يأكل من زادى ويمسكنى
لكى يقال عظيم القدر مقصود
من علم الأسود المخصى مكرمة
أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النخاس دامية
أم قدره وهو بالفلسين مردود

وقاطعته، قائلا: عذّبتك الدنيا ياأبا الطيب فجعلت نفسك نفس ملك، وهمتك همة ملك، وشعرك بين الشعر هو الملك.. فتبا لذاك الزمان الذى وضعك هذا الموضع، منحك صفة الملوك ولم يجعلك ملكا، حرمك المال ولم يحرمك النفس فأستحال عليك التوفيق بين نفسك وحالك.

فأطرق أبو الطيب برأسه.. حزينا.. ثم قال:

أما في هذه الدنيا كريم
تزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكان
يُسَر بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدّى
علينا والموالى والصميم
وما أدرى اذا داء حديث
أصاب الناس أم داء قديم

ووضع يده على رأسه يتحسس شعره الأ بيض بعد أن خلع عمامته.. وقال:

وقت يضيع وعمر ليت مدته
في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبة
فسرهم وأتيناه على الهرم

فعقبت على قوله: لقد ذكرتني بالأديب الفذ عباس محمود العقاد حيث قال فيك: «فهو حيث قلبت من حكمته وفخره أو غزله ورثائه، هو هو المعتد بفضله، الفاشل في أمله، الساخط على زمنه» وهو - أى العقاد - يرد هذه النزعة التشاؤمية عندك إلى رجاء خاب في الناس على غير إنتظار، ولو لم يخب هذا الرجاء لما كنت من المتشائمين..

لقد أثقلت على الرجل وحملت عليه حملة شديدة - خاطبت نفسى - وعليّ اذن أن أخرجه من هذا الحديث التشاؤمى، وأجعله يفرغ ما في صدره من حنق وغيظ مكظوم.. فبادرته قائلا: وماذا قلت في كافور غير الذى سمعت..؟ إنى أعرف أنك قلت الكثير.. والكثير..

فرد عليّ من فوره بشعره:
أولى اللئام كويفير بمعذرة
في كل لؤم و بعض العذر تفنيد

وذاك أن الفحـــول الـبـيـض عـاجـزة
عـن الجـمـيـل فـكـيـف الخـصـيـة الـسـود

وعقبت: لقد أفحشت فيه القول ياأبا الطيب.. ألى هذا الحد..

فأضاف:

وأسـود أمـا الـقـلـب مـنـه فـضـيـق
نخـبـب وأمـا بـطـنـه فـرحـيـب
يمـوت بـه غـيـظـا على الـدهـر أهـلـه
كـمـا مـات غـيـظـا فـاتـك وشـبـيـب
إذا عـدمـت الأصـل والـغـفـل والـنـدى
فـمـا لحـيـاة في جـنـابـك طـيـب

ثـم قـال: لـقـد عُـفـت المقام بقربه بعد ما عرفته وجنده وأشياءه من العبيد أمثاله، فخرجت من مصر ليلة العيد عبر الصحراء.. وأنشد:

عـيـدٌ بـأيـة حـال عـدت يـاعـيـد
بمـا مضى أم لأمـر فـيـك تجـديـد
أمـا الأحـبـة فـالـبـيـداء دونـهـم
فـلـيـت دونـك بـيـدا دونـهـا بـيـد
لـولا العلى لـم تجب بـى ما أجوب بـهـا
وجـنـاء حـرف ولا جـرداء قـيـدود(١)

١ ــ الوجناء: الناقة العظيمة الوجنات، وقيل العظيمة الخَلْق مأخوذة من الوجين وهو العظيم الغليظ والحرف: الناقة الضامرة. والجرداء: الفرس القصير الشعر. والقيدود: الطويلة

وكـان أطـيـب مـن سـيـفـى معـانـقـة
أشـبـاه رونـقـة الغيـد الأمـاليـد(١)

لـم يـتـرك الـدهـر مـن قـلـبـى ولا كبدى
شـيـئـا تـتـيمـه عين ولا جـيـد

وتـغـيـرت نبـرات صـوتـه وأحـسـسـت أنفاسه تلفح وجهى، وهو يصور مـأساته مع كافور.. في مصر، بل مأساة مصر فى ذلك الزمان، ليقول أنه لا يهجو كافورا فحسب، بل يوثق للتاريخ أحداث جساما.

وإذا بـالمضيفة أقبلت نحونا، تحمل طبقا رفعته عن عربة تدفعها أمامها بـرفق.. فيه شيء من طعام، وأخذت تضع طبقا أمام هذا وآخر أمام ذاك، وتحـاور ثـالـثـا في شيء يـريـده حـتـى إذا وصـلت عندى أومأت لها برأس شاكرا..

وأحـسـسـت بـأنـامـل تـطـرق كـتـفى برفق.. إنه أبو الطيب يشير إلى المضيفة.. و ينظر مستفسرا..

ألمـحـت إلـيـه أن يـنـتـظـر حتى تذهب.. ولما انصرفت، التفت نحوه متسائلا وأنا أعرف مقصده: هل لك في شيء من الطعام؟.

فـرد: لـيـس بـى موضع يسرى فيه طعام أو شراب، إنته عن هذا.. ثم أضاف: من تلك الحسناء الغيداء..؟.

١ ــ الغيد: جمع غيداء، وهى ناعمة. والأماليد أيضا: الناعمات.

قلت: تجدها فيمن ذكرت في شعرك.

فرد قائلا: أى قصيدة تعنى..؟ ثم استدرك نعم.. نعم لقد عرفت ما ترمى إليه ثم أنشد وهو على حال من الصبابة والوجد..

ولا بـرزن مـن الحـمـام مـائـلـة
أوراكـهـن صـقـيـلات الـعـراقـيـب

وأحسست بالشجن يملأ صدره.. حينما تأوه طويلا ثم قال:

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت
منى بحلمى الذى أعطت وتجريبى

وقاطعته قائلا: لقد قلت شعرا رائعا في الغزل، هل أمتعتنا ببعضه.

قال مشترطا: في الغزل فقط.

فوافقته قائلا: نعم في الغزل فقط.. فأخذ يقول:

صـريـع مـقـلـتـهـا سأال دمنتها
قتيل تكسير ذاك الجفن واللَّعسِ(١)
خريدةٌ لورأتها الشمس ما طلعت
ولو رآها قضيب البان لم يَمَسِ(٢)

١ ـ السأال: مبالغة في السائل. الدمنة: ما تلبد من آثار الدار. اللعس: سمرة في الشفة.
٢ ـ الخريدة: المرأة الحيية.

مـا ضـاق قـبـلـك خـلـخـال على رشـاء
ولا سـمـعـت بـديـبـاج على كُـنُـسِ(١)

فقلت: ويحك يارجل.. أوكل هذا فيك..!

قال: بل أكثر من ذلك.. إليك هذه:

بـحـب قـاتـلـنـى والـشـيـب تـغـذيـتـى
هـواى طـفـلا وشـيـبـى بـالـغ الحـلـم

فـمـا أمـر بـرسـم إلا أسـائـلـه
ولا بـذات خمـار لا تـريـق دمـى
تـنـفـسـت عـن وفـاء غير مـنـصـدع
يـوم الـرحـيـل وشـعـب غير مـلـتـئـم(٢)
قـبـلـتـهـا ودمـوعـى مـزج أدمـعـهـا
وقـبـلـتـنـى على خـوف فـمـا لـفـم
فـذقـت مـاء الحـيـاة مـن مـقـبـلـهـا
لـو صـاب تـربـا لأحـيـا سـالـف الأمـم
تـرنـو إلى بـعـين الـظـبـى مجـهـشـة
وتمـسـح الـطـل فـوق الـورد بـالـعـنـم(٣)

١ ــ رشاء: ولد الظبية. والكنس: جمع كناس: بيت الظبية.
٢ ــ المنصدع: المنشق. والشعب: الفراق، وأراد به هنا القبيلة.
٣ ــ صاب: نزل. مجهشة: متحيرة قد تغير وجهها للبكاء. والطل: الندى. والعنم: نبت في الرمل أحمر اللون يأتي بعد المطر مباشرة.

على مسامعه هز رأسه إكبارا وإعجابا.. فاسمع:

حسان التثنى ينقشن الوشي مثله
إذا مسن في أجسامهن النواعم(١)
ويبسمن عن در تقلدن مثله
كأن التراقى وشحت بالمباسم(٢)

فعقبت: تصوير رائع ياأبا الطيب، وإن كان قد سبقك إليه كثير من الشعراء وتبعك اكثر منهم حتى صارت الفكرة بالية مستهلكة، ولكنك أبدعت فيها، ولكن أين بقية غزلك..؟ إلىّ به

اعتدل أبو الطيب في جلسته، وجعل وجهه نحوى، وقال: إعطنى أذنيك وعقلك.. وحواسك جميعا.. ثم تغنى قائلا:

كم قتيل، كما قتلت شهيد
لبياض الطلى وورد الخدود(٣)
وعيون المها ولا كعيون
فتكت بالمتيم المعمود(٤)
درَّ درُّ الصبا أأيام تجرير
ذيولى بدار أثلة عودى

١ ـ الوشي: النقش، وهن الثياب المنقوشة. ومسن: تبخترن وتمايلن. يقول لنعومة أجسامهن ورقتهن يؤثر الوشى فيها مثله إذا تبخترن.
٢ ـ التراقى: جمع ترقوة وهى العظام التى فوق الصدر والمبسم: هي الثغر.
٣ ـ الطلى: الأعناق.
٤ ـ المتيم: المذلل المدله. المعمود: الذى هده الشوق.

ثم نظر برهة وقال..:

أمـنـعـمـة بـالـعودة الظبـيـة التـى
بـغير ولى كـأن نـائـلـها الوسـمـى(١)
تـرشـفـت فـاهـا سـحـرة فكـأنـنـى
تـرشفـت حـر الـوجـد من بارد الظلم(٢)
فـتـاة تـسـاوى عـقـدهـا وكلامـهـا
ومـبـسـمـهـا الـدرّى في الحـسـن والـنـظم
ونـكـهـتـهـا والمـنـدلى وقـرقـف
معتقة صـهـبـاء في الـريـح والطعم(٣)

فـاعـترضـته قائلا: ياأبا الطيب لقد أعجبني بيت ينسب الى يزيد بن معاو ية، وهورائع التصو ير جميل الكلمات والمعانى.. يصف فيها حسناء مـبسمها درى ودموع عينيها لآلىء.. وأمطرت لؤلؤ امن نرجس.. تنساب حـتـى الـشـفـاه، و يرى في شفتيها رؤية لم يسبقه إليه أحد.. وعضت على العناب بالبرد.. روعة التصو ير جمعت في هذا البيت.

فـتـحـمـس قـائـلا: اذن اسمع منى وصفا يفيض حسنا ورقة وروعة، وقبـلـه سـأتحـفك ببيتين لى تراهما.. اكثر ما تسمعهما، من تقع كلماتهما

١ ــ الوسمى: أول المطر. والولى: ما يليه. والنائل: العطاء.
٢ ــ الظلم: برد الأسنان و بريقها، والجمع ظلوم.
٣ ــ المندلى: وهو العود الذى يتبخر به، وهومنسوب الى مندل وهوموضع بالهند. والقرقف: الخمر وكذلك الصهباء. الصهوبة: الشقرة من شعر الرأس.

عــمــرك الله، هــل رأيــت بــدورا
طــلــعــت في بــراقــع وعــقــود

رامــيــات بــأســهــم، ريشـهـا الهدب
تــشــق الــقــلــوب قــبــل الجــلــود

فقلت: إنك لتبدع صورا ما سبقك إليها أحد من الشعراء.

ولكنه استمر يكمل قصيدته:

يــتــرشــفــن مــن فــمــى رشــفــات
هــن فــيــه حــلاوة الــتــوحــيــد

كــل خمــصــانــة أرق مــن الخــمــر
بــقــلــب أقــس مــن الجــلــمود(١)

ذات فــرع، كــأنمــا ضــرب الــعــنــبر
فـــيـــه بمـــاء وردٍ وعـــود

حــالــك كــالغداف، جَثلٍ دجوجى
أثــلــثٍ جــعــدِ، بــلا تجــعــيــد(٢)

تحــمــلُ المسك عن غدائرها الريح
وتــفــتــر عــن شــتــيــت بــرود(٣)

١ ــ خمصانة: ضامرة البطن.
٢ ــ الغداف: الغراب الأسود. الجثل: كثير النبات، والمعنى ذات شعر رأس حالك السواد كثير النبات أى غزير، جعد من غير تجعيد أى على فطرته.
٣ ــ شتيت: متفرق في استواء. والبرود: البارد.

جمعت بين جسم احمد والسقم
وبين الجفون والتسهيد

وقاطعته قائلا: ويحك يارجل.. هي - إذن - سبب نحولك وضمورك

فقال: نحولى.. بل أبعد من ذلك بكثير.. وأكمل

هذه مهجتى لديك لحينى
فأنقصى من عذابها أو فزيدى

أصل ما بى من الضنى بطل
صيد بتصفيف طرة، وبجيد
كل شيء من الدماء حرام
شربه، ما خلا ابنة العنقود
فاسقنيها، فدى لعينيك نفسى
من غزال، وطارفي وتليدى(١)
شيب رأسى، وذلتى، ونحولى
ودموعى على هواك شهودى
أى يوم سررتنى بوصال
لم ترعنى ثلاثة بصدور؟

ثم سكت صامتا.. وما ازال منصتا.. ساد جومن الصمت..

١ ــ الطريف والطارف والمطرف والمستطرف: ما استحدث عندك من مال. والتليدوالتالد والمتلد والتلاد: ما كان عن إرث من الآباء.

كسرته قائلا: إذن انها قصة عشق، وليست غزلا، إنك أسررت لى بلواعج صدرك وحر صبابتك.

فتبسم قليلا ثم قال:

أهلاً بدار سباك أغيدها
أبعد ما بان عنك خُرَّدها(١)
ظلت بها تنطوى على كبدٍ
نصيحة فوق خلبها يدها(٢)
ياحادى عيرها وأحسبنى
أوجد ميتا قبيل أفقدها
قفا قليلا بها علىّ فلا
أقل من نظرة أزَوَّدُها

ففي فؤاد المحب نارُ جَوًى
أحر نار الجحيم أبردها
ربحلةٍ أسمرٍ مقبَّلها
سبحلةٍ أبيضٍ مجردها(٣)

١ ــ الخرد: جمع خريدة وهى البكر التى لم تمس.
٢ ــ الخلب: قيل غشاء الكبد أو القلب، وجعل اليد نضيحة من جراء حرارة الكبد أو القلب.

٣ ــ الربحلة: اللحيمة الطويلة العظيمة، ورجل ربحل، وكذلك سبحلة، ورجل سبحل نفس المعنى.

يــاعــاذل الــعــاشــقين دع فــئــة
أضــلَّــهــا الله كــيــف تــرشِــدُهــا

وما ان توقف أبو الطيب حتى رحت استحثه قائلا: زدني ياسيد القوافي.

فقال:

مـا أوجـه الحضر المـسـتحـسنات بـه
كـأوجـه الـبدو يات الرعـابيـب(١)
حـسـن الحـضـارة مجـلـوب بتـطـريـة
وفي الـبـداوة حـسـن غير مجـلـوب
أيـن المـعـيـز مـن الآرام نـاظـرة
وغير نـاظـرة في الحـسـن والـطـيـب
أفـدى ظـبـاء فـلاة مـا عـرفـن بـهـا
مـضـغ الكـلام ولا صـبـغ الحـواجيـب
ولا بـرزن مـن الحـمـام مـائـلـة
أوراكـهـن صـقـيـلات الـعـراقيـب

وسألني:مارأيك فيما قلت ..؟

فأجبت: إني أوافقك في نصف مقالتك في ابياتك الأ ولى، وإطنابك في وصف البدو يات وإعجابك بهن، ولكني لا أرضى منك مقالتك في الحضريات.. فلهن في نفسي لشيء.. وشيء.

١ ــ الرعابيب: جمع رعبوبة، وهي الفتاة البيضاء.

فعلق قائلا: هذا شأنك، أما قولي هو احساسي ولك أن تقبله أو ترفضه.

فقلت: أنني أقبل الاطناب وأرفض التشهير.. وأرجوك أن تغلق الحوار في هذا الشأن فأنت ذاهب لا محالة، ولكني باق ولا أريد أن أفتح على نفسي أبواب لا أستطيع مواجهتها.

قال: لا عليك - إذن - فلهن هذه الأ بيات.. وأنشد

بأبى الشموس الجانحات غواربا
الـلابسات من الحرير جلاببا
المنبهات عقولنا وقلوبنا
وجناتهن الناهبات الناهبا(١)
الناعمات، القاتلات، المحييات،
المبديات من الدلال غرائبا
حاولن تفديتى وخفن مراقبا
فوضعن أيديهن فوق ترائبا(٢)
وبسمن عن برد خشيت أذيبه
من حر أنفاس فكنت الذائبا

١ ــ الناهبة: الرجل الشجاع الذى ينهب الناس.
٢ ــ تفديتى: أى أن تقول بنفسى أفديك. والترائب: جمع تريبة وهى أعلى الصدر من موضع القلادة.

يــاحــبــذا الـمـتـحـمـلـون وحـبـذا

واد لـثـمـت بـه الـغـزالـة كـاعـبـا

كـيـف الرّجـاء مـن الخـطـوب تخلصا

مـن بـعـد مـا أنـشـبـن فيّ مخالبا

وصمتنا طويلا.. ثم التفت نحوه متسائلا: أتدرى ياأبا الطيب أننى.. أبا الطيب.. أين أنت..؟ أين ذهب..؟.

أردت أن أنادى عليه بأعلى صوتى.. ولكننى تذكرت أننى وحدى الذى كان مع أبى الطيب.. أقصد الطيف..

جلست صامتا يلازمنى فراقه، وكنت أتمنى ألا يفارقنى أبدا، وأن يبقى معى حتى نهاية الرحلة، بل ونستمر معا أيضا.. ولكن هيهات..

مـا كـل مـا يـتـمـنـى المرء يـدركـه

تـأتـى الـريـاح بما لا تـشـتـهـى الـسـفـن

ورجعت استرجع ما دار بينى و بين أبى الطيب حول أبى فراس الحمدانى، والحق أن أبا فراس فارس مغوار، وشاعر صادق العاطفة، مقتدر متمكن من شعره، و يكفيه أنه صاحب أطول فخرية في الشعر العربى، بلغت مائتى وخمسة وعشرين بيتا.. تسمى الرائية مطلعها.

لـعـل خـيـال الـعـامـريـة زائـر

فـيـسـعـد مـهـجـور و يـسـعـد هـاجـر

و يقول مؤرخو الشعر: أن الشعر العربى خاصة في العصر العباسى ظهر فيه ثلاثة ملكوا ناصية الفخر ، وجعلوا أبا فراس على رأسهم ثم أبا الطيب والشريف الرضى.

والفخر غرض أصيل في شعر أبى فراس، ولا غرو في ذلك فقد تعددت بواعث الفخر من عراقة النسب، ومكانة الأسرة التى تربعت على عرش حلب في القرن الرابع الهجرى، وكانت العنصرَ العربى الوحيد الذى يتبوأ الحكم آنذاك، فضلا عن كون الرجل نفسه أحد أمراء بنى حمدان، بل وأحد الأبطال المنتصرين الذين صالوا وجالوا في معاركهم ضد الروم.

وكان شديد الاعجاب بقومه الحمدانيين و يرى فيهم الخلافة والزعامة، حتى أنه يحذر كل من يحاول مجرد التفكير في النيل من قومه.. بقوله:

أيها المبتغى محل بنى حمـ
ـدان مهلا أتبلغ الجوزاء
فضلوا الناس رفعة وسموا
وعَلَوهم تكرما ووفاء
يا مجيل الأفكار فيهم إلى كم
تتعب النفس هل تبلغ السماء

وقد وصل الفخر بأبى فراس حدا جعله يصف قومه في مصاف تعلو البشر فيقول:

لـئــن خــلــق الأنــام لحسو كـأس
ومــســمــعــة مــطــنــبــور وعــود
فــلــم يخـلــق بــنــو حمــدان إلا
لمــجــد أو لحــمــدٍ أو لجــود

وأبو فراس فارس مغوار له باع طويل وخبرة عريقة فقد خاض حروباً ومعارك كثيرة مع ابن عمه سيف الدولة.. أو سيف الهدى كما يحلو لأبي فراس أن يناديه، وفي أثناء عودته من إحدى المعارك منتصرا على الروم، عرج على الصيد، فإذا بكمين وفخٍ قد أعدّه لأسره.. فوقع أسيرا.

وجراح الأسر كثيرة.. فقد الاصدقاء والأهل والأحباب.. وبما أنه الرجل البار بأمه ومازال بارا بها حتى وهو أسير اذا به يبعث اليها يوعزها على الصبر قائلا:

مـصـابـي جـلـيـلٌ، والـعـزاء جميـل
وظــنــي بــأن الله ســوف يــديــل(١)
جــراحٌ تحــامــاهــا الأســاة مخــوفــة
وســقــمــان: بــادمــنــهــمــا ودخــيــل(٢)
وأسرٌ أقــاســيــه، ولــيــلٌ نــجــومــه
أرى كــل شيء غــيــرهــن يــزول

وحقا إنه في الشدة تعرف الخلان.. نسوه أصحابه فعاتبهم بقوله:

١ ــ يديل: يزيل أو يغير.
٢ ــ الأساة: جمع آس، وهو الطبيب.

تـنـاسـانـى الأصحاب إلا عصيبة
ستـلـحـق بـالأخـرى غـدا وتحـول
ومـن ذا الـذى يـبقـى على العـهـد انـهم
وإن كـثـرت دعـواهـم لـقـلـيـل
أقـلـب طـرفى لا أرى غير صـاحـب
يمـيـلُ مـع الـنـعـمـاء حـيـث تميـل

و يدعو أمه للصبر إقتداءا بالأ وائل والسلف الصالح قائلا لها:

فـيـا أمـتـا لا تـعـدمـى الصبـر إنـه
إلى الخير والـنُّـجـح الـقـريـب رسـول
و يـا أمـتـا لا تخـطـىء الأجـر إنـه
على قـدر الـصـبـر الجـمـيـل جـزيـل
أمـالـك في ذات الـنـطـاقين أسـوة
بمـكـة والحـرب الـعَـوَان تجـول
وكـونـى كـمـا كـانـت بـأحـد صفـيـة
ولـم يـشـف مـنـهـا بـالـبـكـاء غـلـيـل

ورغـم كـل هـذه القوة على الصبر والجلد والتحمل التى يبديها لأمه، و يطـلـب منها أن تتحلى بالصبر، إلا أنه أمام حمامة تنوح على شجرة أمامه يضعف، و يبوح لها بما في نفسه فيقول:

أقـول وقـد نـاحـت بـقـربى حمامة
أيـا جـارتـا هـل تـشـعـرين بحـالى
مـعاذ الهوى، ما ذقت طـارقة النـوى
ولا خـطـرت مـنـك الهـمـوم بـبـالى
أتحـمـل محـزون الـفـؤاد قـوادم
على غـصـن نـائـى المسـافـة عـالى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا!
تـعـالى أقـاسـمـك الهـمـوم تـعالى!
تـعـالى تـرى روحـا لـدى ضـعـيفة
تـردد في جـسـم يـعـذب بـال!
أيـضـحـك مـأسور وتبـكى طليقة
ويـسـكـت محـزون ويـنـدب سال؟
لقد كـنـت أولى منك بـالدمع مقلة
ولـكـن دمـعـى في الحـوادث غـال!

ثم هو يصور ما يعانيه في الأسر لخادمه منصور، يحكى له عن الأسى الذى لحق به في أبيات قوية المعنى.. ومع ذلك لا ينسى الفخر بنفسه..:

مـغـرمٌ، مـؤلـمٌ، جـريـحٌ، أسـيـرٌ
إن قـلـبـا يـطـيـق ذا لـصـبـور
وكـثير مـن الـرجـال حـديـدٌ
وكـثير مـن الـقـلـوب صـخـور

قـل لمـــن حـل بـالـشـام طـلـيـقـا
بـأبـــى قـــلـبـك الـطـلـيـق الأسير
أنـا أصـــبـحـــت لا أطـيـق حـراكـا
كـيـف أصبحت أنت يـامـنـصـور..؟

وقبل أن يفك أسره يبلغ أبا فراس نبأ يقع عليه وقع الصاعقة إنه موت أمه.. فيبلغ شأوا بعيدا في التفجع والتوجع والتأوه الممزوج بالغربة، وضنك الأسر والحيرة. لقد فقد مصدر الحنان الذى يلجأ إليه بشكواه ونجواه، فضاق صدره بالحياة، وتسلى بأنه عن قريب صائر إلى ما صارت إليها، وظل يناديها في حرقة وحسرة تعتصراه في ألم.. وظل يناديها بأم الأسير في مريثته التى بدأها بهذه المشاعر الأليمة:

أيـــا أم الأسير ســـقـــاك غـــيـــث
تحير لا يـــقـــيـــم ولا يـــسير
أيـــا أم الأسير ســـقـــاك غـــيـــث
إلى مـــن بـــالـــفـــدا يـأتـى الـبـشير
أيـــا أم الأسير لمـــن تـــربـــى
وقـــدمـــت الـــذوائـــب والـــشـــعـــور

فكأنه لم يعد له أمل في الحرية والفداء، وكأنه كان يتمنى أن يطلق سراحه من أجل أمه فحسب.. وكم تصور وتخيل فرحتها بتلقى البشارة.. و يتحسر على عمرها الذى أنفقته في تربيته مغتربة عن الأهل والعشير:

إذا ابـــنــك ســار في بــر و بــحــر

فــمــن يــدعــو لــه أو يــســتــجير

حـــرامٌ أن يـبـيـت قـــريـــر عين

ولـــؤم أن يــلـــم بـــه الـــســرور .

وقـــد ذقـت المـنـايـا والـرزايـا

ولا ولـــد لـــديـــك ولا عـــشير

ثـم تـتـدفـق دمـوع أبـى فـراس، فيُبكى معه السامع والرائى، الشاهد والـغـائـب، فـيُـبـكـى اللـيـل والنهار لأنها كانت فيهما بين قيام وصيام، و يُبكى كل مضطهد ومستغيث، كل مسكين وفقير:

لـيـبـكـيـك كـل لـيـل قـمـت بـه

إلى أن يـبـتـدى الـفـجـر المـنير

لـيـبـكـيـك كـل نـوم صـمـت بـه

مـصـابـرة وقـــد حمـى الهـجـيـر

لـيـبـكـيـك كـل مـضـطـهـد مخوف

أجـــرتـــيـــه وقـــد قـــل المــجير

لـــيـــبـــكـيـك كـل مـسـكين فـقير

أغـــشـــتـــيـــه ومـا في الـعـظـم ريـر

و يـتـحسر على فقدها دون أن يستطيع أن يعوّضها ما قاست في سبيل تـر بيـتـه مـن الهم الطو يل، وإنعدام النصير، وعدم الفرح بلقياه، و يبكى

فيها المشتكى والملجأ:

أيـــا أمّـــاه كـــم هـــم طـــويـــل
مضى بـــك لـــم يـــكـــن منـــه نـــصير

أيـــا أمـــاه كـــم سر مـــصـــون
بـــقـــلـــبـــك مـــات لـــيـــس لـــه ظـــهـــور

أيـــا أمـــاه كـــم بـــشـــرى بـــقـــربـــى
أتـــتـــك ودونـــهـــا الأجـــل الـــقـــصـــير

إلى مـــن اشـــتـــكـــى ولـــمـــن أنـــاجـــى
إذا ضـــاقـــت بـــه بمـــا فـــيـــهـــا الـــصـــدور

بـــأى دعـــاء داعـــيـــة أوْقَـــى؟
بـــأى ضـــيـــاء وجـــه مـــســـتـــنـــير؟

بمـــن يـــســـتـــدفـــع الـــقـــدر المـــوفى؟
بمـــن يـــســـتـــفـــتـــح الأمـــر الـــعـــســـير؟

إن من أكثر الأمور دلالة على شاعرية أبى فراس وتمكنه، بل وصدق عاطفته أيضا، خاصة وأنه لا يرمى إلى مقصد معين من وراء شعره سواء كان ماديا أو معنويا، الدليل القوى هنا هوذلك الأسى وتلك المرارة في الأبيات السابقة التى قالها ابان الأسر. ثم الحس المرهف والعذوبة والرومانسية في الأبيات اللاحقة، وهى في مجال الغزل، حيث نلمس رقة وعذوبة تتمشيان مع طبيعة النساء، ونرى انتقالا رشيقا بين الكلمات، وذوق رفيع في الانتقال بالالفاظ لوصف مفاتن الحسان اللائى شغلن قلبه

حينا.

وأبو فراس يصف الحسان في شعره من عدة نواح، فهو قد رأى حسناء فائقة الحسن يقول فيها:

قـمـرٌ دون حـسـنـة الأقـمـار
وكـثـيـب مـن الـنـقـا مـسـتـعـار
وغـزالٌ فـيـه نـفـار، ولا بـد
ع فـمـن شـيـمـة الظِّـبـاء النفار
لا أعـاصـيـه في إجـتـراح الـمـعـاصى
في هـوى مـثـلـه تـطـيـب الـنـار

وفي وصف أخرى يقول:

مـن أيـن للـرشـاء الـعـزيـز الأحـور
في الخـد مـثـل عـذاره المـتـحـدِّر؟
قـمـرٌ كـأن بـعـارضـيـه كـلـيـهـما
مـسـكـا، تـسـاقـط فـوق وردٍ أحمـر

و يقول في ثالثة:

وأديـبـة إخـتـرتـهـا عـربـيـة
تـعـزى إلى الجـد الـكـريـم وتـنـتـمـى
محـجـوبـة لـم تـبـتـذل، أمـارة
لـم تـأتمـر، مخـدومـة لـم تخـدم

لـو لـم يـكـن لى فـيـك إلا أنـنـى
بـك غـنـيـتُ عـن إرتـكـاب المـحـارم

ولـقـد نـزلـت فـلا تـظـنـى غـيـره
مـنـى بمـنـزلـة المـحـب المـكـرم

وابـو فـراس ذاع صيتـه، ومـازال شعره يحفظه العامة والخاصة بسبب قصيدة اعتبرها جوهرة في تاج الشعر العربي يقول في مطلعها:

اراك عصي الـدمـع شـيـمتـك الـصـبـر
امـا للـهـوى نـهـي عـلـيـك ولا أمـر

بلى، انـا مـشـتـاق وعـنـدي لـوعـة
ولـكـن مـثلي لا يـذاع لـه سر

اذا الليـل اضـواني بـسـطـت يـد الهوى
واذللـت دمـعـا مـن خلائـقـه الـكـبـر

تـكـاد تضيء الـنـار بين جـوانـحـي
اذا هـي اذكـتـهـا الـصـبـابـة والـفـكـر

ورغـم كـل هـذا الـتـمـنّع من الحبيب والتقلب الا انه لم يزل حافظاً للود:

مـعـللـتـي بـالـوصـل والمـوت دونـه
اذا مـت ظـمآنـا فـلا نـزل الـقـطـر

حَـفِـظـتُ وضَّـيـعـتِ المـودة بيـنـنـا
واحـسـن مـن بـعـض الـوفـاء لـك الـغـدر

فعدت الى حكم الزمان وحكمها

لها الذنب لا تجزى به، ولي الغدر

وإذا عدنا إلى الحديث عن أبى الطيب مع أبى فراس لوجدنا أن أبا الطيب قد تجاهل أبا فراس وعَرَّض به و بغيره من الشعراء، ومن الصعب على أمير حمدانى يعد الرجل الثانى في حلب آنذاك أن يُقابل بمثل هذا التجاهل وذلك النكران من قبل شاعر في بلاط أسرته.

وربما كان أبو الطيب يسعى لحمل لواء الأدب آنذاك، فكيف به — إذن — يرفع من شأن شاعر بنى حمدان الذى رأى فيه منافسا قو يا ومن هنا كان كل منهما يحاول أن ينقص من قدر الآخر.

كان كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة المنافس، أبو فراس ينظر إلى أبى الطيب على أنه رجل من السوقة رفعه الشعر درجات، في حين يرى أبو الطيب في أبى فراس أميرا رفعت الإمارة من شعره، ومن هنا كانت العلاقة بينهما تتسم بالنفور الذى تحول إلى عداء ظاهر.

لم تكن هذه هى الأسباب فقط، بل يسبقها شعور أبو الطيب بالعظمة والتعالى، بل واحتقار الناس وفوق هذا كله الغرور، فهو يرى غيره من الشعراء مجرد صدى وهو وحده الصوت كما يقول:

ودع كل صوت بعد صوتى فإننى

أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

ويمعن في احتقار الشعراء بالتصغير وغيره فيقول:

و ياللتضحية عند ابى فراس.. يترك الاهل من اجل من أحب:

بـدوت وأهلي حـاضـرون لانـنـي
اری ان دارا لـسـت مـن اهـلـها قـفـر

وحـاربـت قـومـي في هـواك وانـهـم
وايـاي لـولا حـبـك المـاء والخـمـر

والوفاء من شيم الاحرار الا انه كما قال ابو فراس الوفاء للغادر ذل:

وفـيـت وفي بـعـض الـوفـاء مـذلـة
لآنـسـة في الحـي شـيـمـتـها الـغـدر

تـسـاءلـني: مـن أنـت؟ وهـي عـلـيـمـة
وهـل بـفـتـى مـثـلي على حـالـة نـكـر

فـقـلـت: كـمـا شـاءت وشـاء لها الهوى
قـتـيـلـك، قـالـت: ايـهـم فـهـم كـثـر

فـقـلـت لها: لـو شـئـت لـم تـتـعـنـتي
ولـم تـسـألي عـنـي وعـنـدك بـي خـبـر

فـقـالـت: لـقـد ازرى بـك الـدهـر بـعدنا
فـقـلـت: مـعـاذ الله، بـل انـت لـلـدهـر

ومـا كـان لـلاحـزان لـولاك مـسـلـك
الى الـقـلـب لـكـن الهـوى للـبلى جسر

وفي نهاية الحوار يؤمن ابو فراس بأنها قدر لا مفر منه فيقول:

أفي كــل يــومٍ تحــت ضــبــنــى شــو يعـر

ضــعــيــف يــقــاو يــنــى قــصير يطــاول

و يـزداد الأمـر وضوحا عندما يتعرض أبو الطيب لأ بى فراس صراحة في مجلس سيف الدولة قائلا فيه:

أعــيــذهــا نــظــرات مــنــك صــادقــة

أن تحــسـب الــشــحــم فــيــمــن شحمه ورم

وأبـو فـراس بـدوره يـوغر صدر ابن عمه سيف الدولة على أبى الطيب قـائـلا: ان هـذا المـتـشـدق كـثير الإدلال عـلـيك. دعى كِنده الذى يأخذ أعراض الأمير في مجلسه. وهكذا كانت بينهما نار حامية.

بـقـى أن نـقـول أن أبـا فراس ذلك الفارس الشاعر الذى قال في حق نفسه:

إذا صــلــت يـومـا لــم أجــد لى مــصــاولا

وإن قــلــت يــومـا لــم أجـد مـن يـقــاول

وقال أيضا:

وإذا بــطــشــت بــطــشــت لــيــثــاً بــاســلاً

وإذا نــطــقــت نــطــقــت عــن تــبــيــان

ثـم ان الـذى قـال كـل ذلـك يـنـفـى عـن نـفسه ترفُّعًا كونه شاعرا.. فيقول:

نطقت بفضلى، وامتدحت عشيرتى

وأنـــا مـــدّاح ولا أنـــا شـــاعـــر

ومع كل هذا فمازال المشتغلين بالأدب وأهله يجعلونه آخر أشعر الناس، حيث لهم قولة مأثورة مفادها أن الشعر بدأ بملك وانتهى الى ملك، والأول هو الملك ذو القروح امرىء القيس أما الأخير فهو أبو فراس الحمداني.

واعود بوعي كامل واحساس شامل الى الطائرة حيث يمزق البرق الظلام الدامس حولنا، وارى اكثر من حولى نيام.

واذا بصوت خافت يسألني: أتريد شيئا من القهوة؟.

قلت: نعم.. اياها اريد.

لـم يـزل تـفـكـيرى متعلقا بأبى الطيب، فرحت استرجع حياة الرجل مـنـذ ولادته في الكوفة في العام الثالث بعد المائة الثالثة من الهجرة النبو ية المباركة، من أبو ين فقيرين، فقد كان أبوه سقاءاً في محلة تسمى «كندة» ومن هنا كانت تسميته بالكندى.

نشأ أبو الطيب نشأة الفقراء، وعاش حياة تزخر بألوان الشقاء، ولكن فـقـره لـم يـقـف حائلا دون تفتح مواهبه. فقد لاحظ أبوه علامات النبوغ والـذكـاء فـبـعـث بـه وهـو ابن السادسة عشرة الى الشام ليخالط العلماء، ويجلس مجالسهم وحلقاتهم.

لازم أبـو الطيب الورّاقين مما أتاح له فرصة الإطلاع على آثار الأ ولين. ورحـل إلى بادية السماوة فأخذ عن البدو قوة اللفظ وجزالته، وأقام فيهم يـنـشـد شـعره، فعظم شأنه بينهم بما بدا منه من ملامح العظمة والروعة في الشعر.

سـبـح أبـو الطيب في بحر الحياة الخضم المتلاطم الأمواج، وكل عُدَّته نزعات صلبة قو ية، فلم تصدمه الأحداث التى جابهته، وظل يشق طريقه وسـط الـصـعـاب و يـواجـه الأهـوال، يجـادل و يـقـارع و يـناضل في زمن اضطر بت فيه الأمور، وتتقاذف الأ يدى الإمارات في كل مصر وصقع.

فجال في أمصار الشام يمدح ولا تها وعظمائها، فقد مدح التنوخيين في الـلاذقـيـة، ثـم ذهـب إلى طـبـرية حيث أبى العشائر، ثم إلى طرابلس ثم

لا بـقـومـى شـرفـت بـل شرفـوا بـى

وبــنــفــس فـخـرت لا بـجـدودى

وبـهـم فـخـر كـل مـن نـطـق الـضـاد

وعــوذ الجــانــى وغــوث الـطـريـد

و يرى في نفسه شيئا كثيرا فيقول:

مـا أبـعـد الـعـيـب والـنـقـصـان مـن شرفى

أنـا الـثـريـا وزان الـشـيـب والهـرم

وعلى هـذه الـركـائـز الـفخرية كان ينطلق كالسهم نحو هدف حدده لنفسه، قال في هذا المراد والهدف:

ومـا رغـبـتـى في عـسـجـد أسـتـفـيـده

ولـكـنـهـا في مـفـخـر اسـتـجـده

وهذه المفخرة كامنة في قلبه.. فيقول:

وفــؤادي مــن الـمــلــوك وان

كـان لـسـانـى يـرى مـن الـشـعـراء

وكان يعلم أن الملك له ركائز.. قال في هذه الركائز والدعامات:

أعلى الـمـمـالـك مـا يـبـنـى على الأسـل

والـطـعـن عـنـد محـبـيـهـن كـالـقُـبـل(١)

١ ــ الأسل: رماح تصنع من شجر الآس وهو كثير الشوك.

إنطاكية لمدح أبى عبد الله الخصيبي والمغيث العجلى، وكان هؤلاء الولاة يجزلون له العطاء حتى اتصل بسيف الدولة على بن أبى الهيجاء الحمدانى عام ٣٣٧هـ فصار أكبر شعرائه قاطبة، ومدحه بقصائد خالدة من خيرة شعره.

خرج أبو الطيب من حلب بعد أن فارق سيف الدولة على كره منه.

و بعد أن كاد له حاسدوه وتآمروا عليه، فجال في بعض نواحى الشام وفلسطين، ثم ذهب إلى مصر حيث كافور الإخشيدي. ثم مال الى الحجاز حتى المدينة المنورة وعاد للكوفة عام ٣٥١هـ ونعود مرة أخرى للكوفة التى نشأ فيها وهي آنذاك مسرحا للدعوات التى تبثها القرامطة والإسماعيلية مبشرة بظهور ما يسمى بالمهدى المنتظر من أعقاب على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وتلقى أبو الطيب هذه الأفكار فحدثته نفسه بالطموح فثار على الأوضاع البالية القديمة لعله يحقق مجدا وسيادة، وهنا ظهرت مرحلة التنبؤ، فاتصل بالبدو ممن تربى فيهم فتبعه بنو كلب وتزعمهم في حركة ثورية لعله يصيب ملكا.. أو ولاية، فقد كان منذ صباه يرى في نفسه تفرداً ومغايرة للآخرين فيقول:

إمط عنك تشبيهى بما وكأنه
فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

ومن هذا المنطلق استوجب على قومه أن يفخروا به، لا أن يفخر هو بالانتساب إليهم، فيقول:

وما تقر سيوف في ممالكها
حتى تقلقل دهرا قبل في القلل

فأخذ يستنفر بني كلب ويحضهم على الثورة لعله بهم يحقق الملك والمجدا.. وأشعل حماسهم بقوله:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود(1)
فرؤس الرماح أذهب للغـ
ـيظ وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد
وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى، وذر
الذل ولو كان في جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يعـ
ـجز عن قطعِ بخنقِ المولود(2)
و يوقى الفتى المخش وقد
خوض في ماء لبة الصنديد

فقاد بني كلب وهم في عدة الحرب، وانطلقوا وهو قائل:

١ ــ البنود: جمع بند، وهى الأعلام الكبار، وخفق البنود: اضطرابها.
٢ ــ البخنق: ما يجعل على رأس الصبى. المخش: الرجل الجرىء. والصنديد: السيد الكريم.

إن السلاح جميع الناس تحمله
وليس كل ذوات المخلب السبع

ولكن لؤلؤ أمير حمص قبض على من بقى منهم، وفرّ الباقى، وألقى بهم في السجن، وقبع أبو الطيب في السجن فترة طويلة حتى كاد يتلف، فبعث بقصيدة إليه يستعطفه قائلا:

دعوتك لما براني البلاء
وأوهن رجلى ثقل الحديد
وفي جود كفيك ما جدت لى
بنفسى ولو كنت أشقى ثمود

ولكن أمير حمص لم يلق له بالا.. وربما قد أمسك عليه حتى يمدحه بقصيدة أخرى.. وعلى أية حال فقد نظم أبو الطيب بالفعل قصيدة أخرى و بعث بها إليه، فأطلق سراحه بعدما أعياه السجن.. ومع ذلك لم يزدد ابو الطيب إلا إصرارا.. فقال يتوعد ملوك وسلاطين عصره:

من لو رآنى ماء مات من الظمأ
ولو مثلت له في النوم لم ينم
ميعاد لكل رقيق الشفرتين غدا
ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وأبو الطيب شديد الإعتزاز بنفسه فهو القائل:

ذل مــن يــغــبــط الــذلــيــل بــعـيش
ربّ عــيــش أخــفُّ مــنــه الحـمـام(١)
مــن يــهــن يــســهــل الهــوان عــلــيــه
مـــا لجـــرحٍ بمـــيـــت إيـــلام

وهذه العزة وتلك الكرامة لم يكن ليحدها عند حد معين، بل نمت فيه إلى أن أصبح شديد العجب بنفسه.. فقال:

إن أكــن مــعــجـبـا فعُجبٌ عجيب
لــم يجــد فــوق نــفــســه مــن مزيد
أنــا تــرب الــنــدى، ورب الــقــوافى
وســمــامُ الــعــدى، وغـيـظ الحسود(١)

ولا يـفـتـأ يـتـرك فـرصة إلا وقد فخر فيها بنفسه، وأعجب من هذا أنه يمدح أبطاله على هذا النحو. فيقول وهو في معرض العتاب والإسترضاء لسيف الدولة:

ســيــعــلــم الجمعُ ممن ضمّ مجلسنا
بــأنــنــى خير مــن تــســعــى بــه قــدم
أنــا الــذى نــظــر الأعــمــى إلى أدبـى
وأســمــعــت كــلــماتى من به صمم

١ ــ الحمام: الموت.
تربُ: ترب الإنسان وهو الذى ولد معه في وقت وتر بيا أو ور بيا.
الندى: هو الجود والكرم

الى أن يقول:

الخـيـل والليـل والـبـيـداء تـعـرفـنـى
والسـيـف والـرمـح والـقـرطـاس والـقـلم

ان الاعـتـزاز بـالـنفس.. والفخر والكرامة هذه كلها جعلت في نفسه عفة وارتقاءا عن مواضع الشبهات.. فيقول:

وللـخـود مـنـى سـاعـة ثـم بيننـا
فـلاة إلى غير اللـقـاء تجـاب
ومـا الـعـشـق إلا غـرة وطـمـاعـة
يـعـرض قـلـب نـفـسـه فـيـصـاب

وغير فـؤادى للـغـوانـى رمـيـة
وغير بـنـانـى للـرمـاح ركـاب

وهو قوى في احتقار اللذات الوضعية، فطموحه يصل إلى أعلى غايات المجد..

وإذا كـانـت الـنـفـوس كـبـارا
تـعـبـت في مـرادهـا الأجـسـام

ولهذا يمكن القول بأن أبا الطيب قد ضرب مثلا عاليا في الطموح..، ولكـن ليس إلى هذا الحد، فيجب أن يكون الطموح والأحلام في مستوى القـدرات وإلا أصبح الأمر مجرد خيالا لا يمكن تنفيذه وتحقيقه، فقد سجل أبو الطيب أقصى درجات الطموح في قوله:

إذا غـــامـــرت في شـــرف مـــروم
فــلا تــقــنــع بمــا دون الــنــجــوم

و يذكر أبو الطيب اناس عصره:

ودهـــر نـــاســـه نـــاس صـــغـــار
وإن كـــانـــت لهـــم جـــثـــث ضـــخـــام
ومـــا أنـــا بـــالـــعـــيـــش فـــيـــهـــم
ولـــكـــن مـــعـــدن الـــذهـــب الـــرغـــام(١)

و يكره أن يقنع الناس بأمر ما، ولا يرى ذلك مرغوبا، فيجرد القانع من ثيابه:

ومـن الـنـاس مـن يـرضى بمـيسـور عـيشه
ومـركـوبـه رجـلاه والـثـوب جـلده

و يرى في عوام الناس حوله رأيا صريحا ...:

إنـا لـفـي زمـن تـرك الـقـبـيح بـه
مـن أكـثـر الـنـاس إحـسـان وإجمال

وهناك من هم وجودهم كعدمه.. مثل هؤلاء:

وفي الــنــاس أمـثـلـة تـدور حـيـاتـهـا
كـمـمـاتـهـا ومماتـهـا كـحـيـاتـهـا

وهو لم يأت بهذا الكلام من فراغ، بل عركته الحياة، وهو يعلم مدى

١ ــ الرَّغام: التراب.

مرارة الأ يام.. فيخبرنا بهذا قائلا:

تمـرّسـت بـالآفـات حـتـى تركـتـها
تـقـول أمـات المـوت أم ذعـر الـذعر
ذر الـنـفـس تـأخـذ وسـعـهـا قـبـل بـينها
فـمـفـتـرق جـاران دارهمـا الـعـمـر

وفي موضع آخر ينبهنا إلى أن المجد ليس سهل المنال، فطريقه صعب شائك حافل بالصعاب والمهالك، فيقول:

ولا تحـسـبـن المـجـد تمـرا انـت آكـلـه
لـن تـبـلـغ المـجـد حـتـى تـلـعـق الـصـبـر
ولا تحـسـبـن المـجـد زقـا وقـيـنـة
فـمـا المـجد إلا السيف والفتكة البكر[1]
وتـركـك في الـدنـيـا دويّـا كـأنمـا
تـداول سـمـع المـرء أنمـلـه الـعشر

وإذا احتك لبيب كأبى الطيب بالناس فسوف تتكشف له بواطن الأمور وأسرارها الخافية:

إذا مـا الـنـاس جـربـهـم لـبـيـب
فـإنـى قـد أكـلـتـهـم وذاقـا

١ ــ الزق: الخمر. والقينة: المغنية. الفتكة: المرة من الفتك وهو البطش. والبكر: التي لم يسبق اليها أحد.

فــلـــم أر ودّهـــم إلا خـــداعـــا
ولـــم أر ديـــنـــهـــم إلا نـــفـــاقـــاً

و يـريـد أبو الطيب أن تسود آرؤه الطموحة الناس جميعا، وهو لا يبالى في هذا بعثرات الدهر التى تصيبه قائلا:

إن تـرمـنـى نـكـبـات الـدهـر عـن كـثـب
تــرم امــرءاً غير رعــديـد ولا نـكـس(١)

فـالـقـتـل والموت والعذاب جميعها عذب المذاق في سبيل المجد هكذا يقول:

فـــمـوتـى في الـوغـى عـيــش لأنــى
رأيــت الــعــيــش في أرب الــنــفـوس

ولكونه ليس من الرعاع فهو لا يتألم لما يتألمون منهم:

سـبـحـان خـالـق نفسى كـيـف لـذتـهـا
فيمـــا الـــنـفـوس تـــراه غـــايـــة الألـــم

و ينحى الزرايا جانبا كي لا تعوقه في طريق المجد:

وهـــان فـــمـــا أبـــالى بـــالـــرزايـــا
لأنـــى مـــا انـــتـــفـعـت بـأن أبـالي

ومع كل هذا يؤكد على ضرورة التعقل والرجوع الى العقل الذى يجله ويحقه حق قدره.. فيقول:

١ ــ النكس: الساقط الفاشل.

الـرأى قـبـل شـجـاعـة الـشجعان
هــو أول وهــى المــحــل الــثــانــى
فـإذا همـا اجـتـمـعـا لـنـفـس مرة
بـلـغـت مـن الـعـلـيـاء كـل مكـان
ولــربمــا طــعــن الــفــتــى أقـرانـه
بــالــرأى قــبــل تــطــاعــن الأقـران
لـولا الـعـقـول لـكـان أدنى ضـغـيـم
أدنـــى إلى شــرف مــن الانــســان

ويخـبـرنـا بـأن الـدنـيـا ــ في نظره ــ عدوة الأحرار دائما، يرفع الحظ اللئام ويحط من شأن الكرام، فيها يتنعم الجاهل و يشقى العاقل، وعبر عن هذا قائلا:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخـو الجـهـالـة في الـشـقـاوة ينعم

إن لأ بى الطيب فلسفة خاصة به في الحديث عن المجد، إذ يجعل ثمة ر باط وثيق بين المال والمجد، يوضحه في قوله:

فـلا يـنـحـلل في المـجـد مالك كله
فـيـنـحـل مجـد كـان بـالمال عقده
ودبّــره تــدبير الــذى المـجـد كـفـه
إذا حــارب الأعــداء والمــال زنــده

إذا أنـت أكـرمـت الـكـريـم مـلـكـتـه

وان أنـت أكـرمـت اللـئـيـم تمـردا

وحـاول أن يـعـيـش بين الناس بهذه الأخلاق الكريمة، ولكن صعب الأمر عليه، ولم يفلح في نشرها بينهم، فاكتوى بنار المكائد والدسائس:

وأظـلـم أهـل الـظـلـم مـن بـات حـاسِـداً

لمـن بـات في نـعـمـائـه يـتـقـلـبُ

و يـبـدو أن حسّاده والحاقدين عليه جعلوه يرى الناس مفطورين كلهم على الغدر والخيانة فجعل يقول:

أذُمّ إلى هـــذا الـــزمـــان أهـيـلـــه

فـأعـلـمـهـم فـدمُ وأحـزمـهـم وغـدُ(١)

بل والمحبة والصداقة أخطأ في فهمها فرآهما وهما وخيالا:

نـصـيـبـك مـن حـيـاتـك مـن حـبـيـب

نـصـيـبـك في مـنـامـك مـن خـيـال

وقـال: وصـرت أشـك في مـن أصـطـفـيـه

لـعـلـمـي أنـه بـعـض الأنـام

إذن فالكل لابد الى زوال:

ومـا أحـد يخـلـف في الـبـرايـا

بـل الـدنـيـا تـؤول إلى زوال

١ ــ الفدم: الغبى من الرجال. والوغد: اللئيم الضعيف.

فـلا مجـد في الـدنـيـا لمـن قـلّ مالـه
ولا مـال في الـدنـيـا لمـن قـلّ مجـده

ولا يعنى هذا أن المال هو شغله الشاغل، فهو لن يضيّع عمره و يفنيه في البحث عن المال وجمعه:

ومـن يـنـفـق السـاعـات في جمع مالـه
مخـافـة فـقـر فـالـذى فـعـل الفـقـر

و يدعو أبو الطيب إلى التسامح، فنجده يتدخل بين الوالى وقومه طالبا العفو عنهم قائلا له:

تـرفـق أيـهـا المـولى عـلـيـهـم
فـإن الـرفـق بـالجـانـى عـتـاب
وكـيـف يـتـم بـأسـك في أنـاس
تـصـيـبـهـم فـيـؤلمـك المـصـاب
وعين المـخـطـئين هُـمُ ولـيـسـوا
بـأول مـعشر خـطـئـوا فـتـابـوا

ومازال أبو الطيب يحث على مكارم الأخلاق قائلا:

وكـل امـرىء يـولى الجـمـيـل محـبب
وكـل مـكـان يـنـبـت العـز طـيـب

والكريم كما يراه أبو الطيب مِلكُ من أكرمه.. وعلى العكس من ذلك اللئيم:

بـــدارٍ كـــل ســـاكـــنـــهـــا غـــريـــب

بـعـيـد الـدار مـنـبـت الحـبـال([1])

والويل كل الويل للجبان الخائف:

ولا قضى حــــاجـــتـــه طـــالـــب

فـــؤاده يخـــفـــق مـــن رعـــبـــه

ومن الايمان بالموت الحتمي تنبثق فكرة الشجاعة، ولم الجبن - إذن - إذا كان حال الجميع إلى زوال، فعليك أن تموت بشرف.. هذه دعوة أبى الطيب:

فـــطـــعـــم المـــوت في أمـــر حـــقير

كـــطـــعـــم المـــوت في أمـــر عـــظـــيـــم

و يروى حكمة استقاها من الدنيا في قوله:

ومـن صـحـب الـدنـيـا طـو يلا تـقـلـبـت

على عينيه حتى يرى صدقها كـــذبـا

أرى كـــلـــنـــا يـــبـــغـى الحـيـاة لـنـفـسـه

حـريـصـا عـلـيـهـا مـسـتـهـاماً بها صبّا([2])

فـحـب الجـبـان الـنـفـس أورده الـبـقـا

وحـب الـشـجـاع الـنـفـس أورده الحـرب

١ ــ منبت: منقطع. والحبال: الوصل.

٢ ــ مستهاما: هائما محبا.

وفي خبايا نفس أبى الطيب تجد نزعة غريبة، وكأنه يجعل الناس جميعا ميالين للظلم بطبيعتهم، ومن يترفع عن الظلم منهم فقط لعلة ما..

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

ومن البلية عذل من لا يرعوى
عن جهله وخطابُ من لا يفهم(١)

١ ــ لا يرعوى: لا يكف.

وهكذا غاص أبو الطيب حتى الأعماق في بحر النفس البشرية فأخرج منه اللآلىء تزيّن جيد قصائده، و بالمآس تكشف لمحبى شعره عن اسوء ما في النفس الإنسانية.. ما أعظم حكمك.. من رجل...

إن أبا الطيب شاعرٌ - لا شك - قل أن يجود الزمان بمثله، نُحِسّ به يخاطب كل نفس بأسرارها، و يكشف لكل سريرة مطوىّ أخبارها، فهو يحدثنا عن خلجات نسمع دبيبها، لكنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها، وهى منا على طرف الثمام، ومن أعلم بهمسات النفوس من أبى الطيب؟ ومن أقدر منه على كشف جولات الخواطر.. وهو القائل:

براني السرى برى المدى فرددنني
أخف على المركوب من نفس جرمي
وأبصر من زرقاء جوٍّ لأنني
متى نظرت عيناى شاءهما علمي

مضى سيف الدولة و بدر بن عمار وأبو العشائر وكافور و.. و..، وكل من قال فيهم أبو الطيب شعره، ولكن شعره بقى كالصخرة الصماء تتحطم فوقها صروف السنين..

عندى لك الشرد السائرات
لا يختصصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مقولى
وثبن الجبال وخضن البحارا

وأبو الطيب هو من هو في عبقريته ونبوغه، وقد غاص في لج بحر الحياة فأستخرج منه درر الحكمة الخالدة التى لا ينطفى بريقها، وقد جلى هذه الحكمة في فن قوى رقيق.. فاسمع بعض هاتيك الدرر:

من جهلت نفسه قدره
رأى غيره منه لا يرى

* * * * *

وما الحسن في وجه الفتى شرفا له
إذا لم يكن في فعله والخلائق

* * * * *

فأحسن وجه في الورى وجه محسن
وأيمن كفٍ فيهم كف منعم

* * * * *

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

* * * * *

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

لقد افضت لنا عبقرية أبى الطيب بتعبيرات لكل حالة من حالات

ولي فيك ما لم يقل قائل

وما لم يسر قمر حيث سارا

وكان الرجل على علم بعظمته وعبقريته، ونبوغه النادر فبز الشعراء في صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل بقوله:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق

أراه غباري ثم قال له الحق

ولا تبال بشعر بعد شاعره

وقد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وهو الذى إرتجل قصيدة عصماء في إحدى المواقف مما أذهل أبا العشائر فتساءل مندهشا: أو في وقتك قلت هذا..؟!

فرد عليه أبو الطيب قائلا:

أتنكر ما نطقت به بديها

وليس بمنكر سبق الجواد

أراكض معوصات الشعر قسرا

فأقتلها وغيرى في الطراد

وهو الذى يعرف قدر شعره، فقال في حضرة سيف الدولة و بين يديه لفيف من الشعراء:

أنام ملء جفوني عن شواردها

و يسهر الخلق جرّاها ويختصم

الحياة يقول فيها حكمة تتناشدها ألسنة الخلق كلما عرضت تلك الحالة ـ كما يقول خليل مطران ـ وهذه الأحداث التى وصل منها إلى الحكمة لم تحيد به كما حادت بكثير من أسلافه أو معاصريه. فقدمت لنا عبقريته عن إقتدار وتمكن تلك الدرر الغالية من الحكمة.

وترى عبقريته الفذة في نخبة من قصائده آيات إبداع في الوصف فترى مثلا تنسيق وتقسيم لجيوش سيف الدولة كما وكأنك تمسك بإحدى العدسات المقربة فترى ما يجرى في واقع المعركة..

وذى لجب لاذو الجناح أمامه
بناج ولا الوحش المثار بسالم(١)
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة
تطالعه من بين ريش القشاعم(٢)
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة
تدور فوق البيض مثل الدراهم
ويخفى عليك الرعد والبرق فوقه
من اللمع في حافاته والهماهم(٣)

وقد أبدع أبو الطيب حينما يمسك فرشاته و يرسم بالكلمات الوضاءة الرصينة أجمل لوحات في التاريخ، فهو يصف جيش سيف الدولة بقوله:

١ ــ اللجب: الكثير الأصوات بالحرب.
٢ ــ القشاعم: جمع قشعم، وهو النسر الكبير.
٣ ــ حافاته: جوانبه. والهماهم: جمع همهمة، وهو صوت يتردد في الصور لا يفهم.

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجـوزاء منـه زمـازم

والحق أننا لم نر وصف لجيش من قبل مثل هذا ولا أظنني سنراه، وقال فيه الواحدى وأبو الفتح الكثير، وقال أبو الفتح: فهو الجيش الذى لعظم أمره، وكثرة أهله قد ملأ ما بين الشرق والغرب، وفي أذن الجوزاء ـــ وهى نجم في السماء على صورة الانسان ـــ من أصوات أهله زمازم وهو الصوت الذى لا يفهم لتداخله، وأشار بهذا إلى أن الأصوات بلغت السماء بكثرتها، وتقطع أبعد المسافات بشدتها.

إن أبا الطيب لم يترك بابا أو غرضا من اغراض الشعر وأبوابه إلا ولجه، وأبلى فيه بلاءاً حسنا في ابداع لم يسبقه إليه أحد وتجده في غرض الغزل يودع خزانة الأدب بيتا فريدا في صناعته وموهبة قائله فأسمع قوله:

أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثني وبياض الصبح يغرى بى

قال صاحب اليتيمة: هذا البيت أمير شعره، وفيه تطبيق ـ أى طباق ـ بديع ولفظ حسن ومعنى جيد، وهذا البيت قد جمع بين الزيارة والانثناء والانصراف، و بين السواد والبياض، والليل والصبح، والشفاعة والإغراء و بين لى و بى، وقد أجمع الحذاق بمعرفة الشعر والنقاد أن لأ بى الطيب نوادر كثيرة لم تأت في شعر غيره وهى مما تخرق العقول، وهذا البيت السابق والذى قبله أحد هذه النوادر.

و يرى أبو الطيب في الحسان رأيا إليكه:

إذا غـدرت حـسـنـاء وفت بـعـهـدها
فـمـن عـهـدهـا ألاّ يـدوم لهـا عـهـد
وإن عـشـقـت كـانـت أشد صبابة
وإن فـركـت فـاذهب فما فركها قصد
كـذلـك أخـلاق الـنـسـاء وربمـا
يـضـل بـهـا الهـادى ويخـفـى بـهـا الـرشد

وفي كـل أمـور الحياة تجد أبا الطيب يستخلص الحكم البالغة ليستفيد منها من يريد، فهويقول في العاشقين:

لا تـعـذل المـشـتـاق في أشـواقـه
حـتـى يـكـون حـشـاك في أحـشـائـه
إن الـقـتـيـل مـضـرّجـا بـدمـوعـه
مـثـل الـقـتـيـل مـضـرّجـا بدمائـه

وفي موضع آخر ينصح قائلا:

فـإن قـلـيـل الحـب بـالـعـقـل صـالـح
وإن كـثير الحـب بـالجـهـل فـاسـد

لـقـد خـاض أبـو الـطيب ميدان الحكمة في الشعر، وهو ميدان لا يجرؤ على دخـولـه إلا فحول الشعراء، فكان حكيماً، وكانت الكلمات طيّعة لا تـكـلـف فـيـهـا ولا شيـة، فقدم لنا الحكمة.. والحقائق يسيرة حلوة عذبة

المذاق، وهي المرة، كما ورد في الأثر:الحقائق مرة فلا ترسلوها جبلا ولا تعلموها جدلا. أعطانا الرجل الحكمة في قالب شعري جزيل اللفظ جميل الجرس، متناغم ومنسجم النغمات مما جعلها بين الناس أمرا ميسورا.

و يؤخذ على أبى الطيب أنه أنفق عبقريته ونبوغه في المدح يتودد به للحكام والملوك والأمراء، وإن كان هو على علم بأن شعره ما ينبغى أن يوضع في هذا الموضع.. ولا يقوم هذا المقام.. فأشار قائلا:

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر

وأسررت في نفسى أمراً.. أردت أن أختبر مدى صدق مشاعر أبى الطيب وشاعريته.. هل هو مأجور يكتب الشعر دون حس صادق..؟؟

لم أجد بابا ألج منه إلى قلبه سوى مرثياته، والآن هو ومن رثاهم جميعا ضمهم القبر.. ولم يبق لنا سوى الرثاء.

ماتت أم أبى الطيب وهو صبى، فرعته جدته منذ صغره، ولكنه كثير الترحال فأرادت رؤيته، فبعث إليها يخبرها بقدومه قريبا.. وهى من فرط فرحتها بقدومه ماتت.. ماتت وهى ممسكة برسالته حتى قبل أن يراها أو تراه.. فرثاها قائلا:

وكنت قبيل الموت أستعظم النوى
فقد صارت الصغرى التى هى العظمى

وما انسدت الدنيا على لضيقها
ولكن طرفا لا أراك به أعمى
فوا أسفا ألاّ أكبّ مقبلا لرأسـ
ـك والصدر الذى ملئا حزنا

هذه جدته.. فقد كانت لوعة الفراق تمزقه، وصار يرثها بكلمات يسيل منها الدمع، وهو يتمنى أن يكب مقبلا، ولكن هيهات.. ألم يقل:

نحن بنو الموتى فما بالنا
نعاف ما لابد من شربه

ثم نراه يرثى أم سيف الدولة.. ولكن هنا طغى العقل على القلب فليس المصاب من أهله، فواسى سيف الدولة قائلا:

ولو كان النساء كمن فقدنا
لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال
وأفجع من فقدنا من وجدنا
قبيل الفقد مفقود المثال
يدفن بعضنا بعض وتمشى
أواخرنا على هام الأوال

ثم هو يرثى أخت سيف الدولة أيضا.. بقوله:

بلى، وحـرمـة مـن كـانـت مـراعـيـة
لحـرمـة المـجـد والـقـصّـاد والأدب
ومـن مـضـت غير موروث خـلائـقـهـا
وإن مضـت يـدهـا مـوروثـة الـنـشب(١)
وهمـهـا في الـعـلا والمـجـد نـاشـئـة
وهـم أتـرابـهـا في اللـهـو واللـعـب

ثـم هو أخيرا يرثى نفسه..!! يقول لغلامه سراج وهو غارقا في بحر من الدمـاء.. فـقـد قـتـل هـو وابـنه.. حتى وهو يعانى من سكرات الموت لم يـتـوقـف عـن قـرض الشعر، فنعى نفسه للدنيا بأسرها، نعى شاعرا قلّ أن يجود الزمان بمثله:

أفـرغ الـدرع يـاسـراج وأبصر
مـا تـرى الـيـوم هـا هنـا من قـتـال
فـلـئـن رحـت في المـكـر صـريـعـا
فـانـع للـعـالمين كـل الـرجـال

لله درّك ياأبا الطيب.. ما أشد وقع كلماتك عليّ، لقد أثارت الشجن في نـفسى.. والتفت ألتقط إحدى المجلات حتى أبتعد عن الرثاء الذي لا احبه..

إنـقضى ثـلـثى زمـن الـرحـلة.. و بقى القليل، مددت إلى مجلة أخرى

١ ــ النشب: المال جميعه، صامته وناطقه.

أمامى أقلب صفحاتها، رأيت بها اعلانا عن الأطعمة والمشروبات ذكرنى بجارى الزاهد في الطعام والشراب تقربا إلى النوم، زهدت مثله في الطعام والشراب وأنشغلت بأمر آخر.. إنه أبو الطيب.

عدت الى المجلة ثانية اتنقل بين صفحاتها حتى وقعت عيناى على رسم (كاريكاتير) لقضبان غليظة.. وخلفها سجين.. فقفز الى ذهنى على الفور اسم «المتنبى» وأوحى إلىّ الرسم بفكرة طالما راودتنى تساؤلات كثيرة حول الفكرة ذاتها:

هل ادعى أبو الطيب النبوة حقا؟ أم أنه محض إفتراء..؟؟

لا يأتى قولٌ من فراغ، لابد من تعقب الحقائق نزولا على تلك الرغبة التى تستحثنى في داخلى للوصول الى حقيقة الأمر..

وعدت أتساءل.. ولكن كيف..؟ كيف الطريق الى الحقيقة..؟؟

إن السند الوحيد الذى نستند إليه هو التاريخ، ولكن هل نكتفى بروايات الرواة الذين تناقلوها، وربما أصابها حشو هنا، وإضافة متحامل هناك؟ أو ربما مجامل؟.

إذن لابد من إحكام العقل والنزول إلى ساحة القضاء.. حيث العدل.. لابد من تقديمه لمحاكمة عاجلة تصدر حكما يفصل بين هذه الآراء المتضاربة عندي..

تنـاولـت حـقـيـبتى لأخرج أوراقا وقلما.. والآن إلى المحكمة(١)..
دخلـت بـاب المحكمة.. أعمدة شاهقة على اليمين واليسار تزين المدخل وأعـلاهـا فـتـاة تحمل ميزان العدالة.. ثم نقشت آية قرآنية بحروف بارزة جميـلـة متداخلة.. سرت في أروقة المحكمة بين الناس، وهم كثيرون فلا تـكـاد تجـد مـكـانـا يخـلـو مـن الأقـدام، وكأن الناس قد حُشروا جميعا في المحكمة.. الجميع يقاضي الجميع..!!

عن يمينى و يسارى على الجانبين حجرات مغلقة يقف أمامها الحُراس أو الـسـعـاة ولافـتـة مـثـبـتـة على يمين الـباب على الحائط.. وكيل النائب العام.. المحامى العام.. القاضى فلان.. رئيس المحكمة..الخ.

مـازلـت أتخطى الزحام والاكتاف تتلاقى ولا وقت لمجرد إيماءة تلمح بالإعتذار.. فالكل مشغول.. مشغول.

المـحامون يرتدون عباءاتهم السوداء، يسرعون في الخطى نحو القاعات الـتـى تتخذ أرقاما متسلسلة.. كل منهم يهرول مسرعا وخلفه يجرى لاهثا مساعده أو كاتبه.

عـيـناى تتنقلان بسرعة بين اللافتات أبحث عن القاعة التى ستنعقد بـهـا المـحـاكـمـة، صعدت الى الطابق العلوى على الدرج لا وقت لانتظار المـصعد.. الخلق كثيرون.. انعطفت يمينا.. ثم سرت في الصالة الطويلة، وأخيرا وجدت القاعة رقم (١٢) التى فيها ستتم المحاكمة.

١ ــ أكبرت أن أجعله في محكمة شرعية، فلا يجوز أن تعقد بها مثل هذه المحاكمات.

دفعت الباب برفق ودخلت القاعة، ممر يخترق صفين من المقاعد عن اليسار وعن اليمين، و بالمواجهة تماما منصة تتخذ شكل القوس، يتوسطها مقعد عال وثير ومرتفع، وآخر عن يمينه وثالث عن اليسار وفي أقصى اليمين مقعد رابع منعزل.. وهناك في اليسار مقعد ايضا..

التفت يمينى فوجدت قضبانا غليظة يقبع جالسا خلفها سجين إنه أبو الطيب في لباسه المعهود، وخارج القضبان يقف شرطيامدججا بسلاحه.

إصطف قوم كثيرون في المقاعد حتى تكاد تكون القاعة قد امتلأت بالحضور.. القاضى لم يحضر بعد.

[الجلسة الاولى]

صاح الحاجب فجأة بصوته الجَهورِي: محكمـــة..

وقـف الحـضور جميعا، دخل القاضي فجلس على مقعده ومعاونوه خلفه، جـلسـوا أيضا والمراقب، ثم كاتب الجلسة جلس هو الآخر وجلس الحضور جميعا ما عدا أبا الطيب ظل واقفا.

الـقاضي يرتدى عباءة سوداء لامعة و يتوشح وشاحا أكثر بريقا مثبت بـأعلى كـتفه الأيمن ومتدلي بميل حتى نصف العباءة في شقه الأ يسر ومحلىّ آخـره بـفـرو أبـيـض لامـع، وتحـت العباءة ارتدى حلة كاملة داكنة قليلا ورابـطـة عـنـق، و بـنـفس اللباس تقريبا ما خلا النجوم النحاسية الثلا ثة المـثـبـتـة على وشـاح الـقاضي وحده، جلس العضوان. ثم اخيرا جلس ابو الطيب.

الـقـاضي بمـطـرقـة خـشبية في يمناه طرق على المنصة طرقة خفيفة معلناً افتتاح الجلسة.

صاح الحاجب: رقم واحد احمد بن الحسين.
أبو الطيب: نعم.. أنا هنا.
القاضي يشير الى أبى الطيب باسطا كفه أن يقف..
وسأله: ما اسمك؟
أبو الطيب: احمد بن الحسين

القاضى: ولقبك. كنيتك
أبو الطيب: أبو الطيب
القاضى: أبو الطيب أم المتنبى..؟
أبو الطيب: لم أقل ذلك، ولم ألقّب نفسى بهذا اللقب قط.
القاضي: هل تعرف الإتهام الموجه إليك؟
أبو الطيب: كلا.. لا أعرف، كل ما أعرفه أننى وجدت نفسى في هذا المكان خلف القضبان الجامدة، والخلق يمعنون النظر فيّ.

القاضى يهمهم «عليم يتغابى»: أتتجاهل أم تتغافل؟
أبو الطيب: لا هذا ولا ذاك سيدى القاضى.
القاضى: لقد ادّعيت النبوة بعد خاتم الرسل والأنبياء صلى الله عليه وسلم.
أبو الطيب يصيح منزعجا: لا .. لا لم أفعل ذلك.. لم أدّعى ذلك
القاضى: كيف تفسر معرفة الناس للقبك المتنبى أكثر من اسمك
ابو الطيب: لأنهم صنعوا هذا اللقب، كما يروق لهم.
القاضى: بل وجدوه في التاريخ
أبو الطيب مستنكرا: أىّ تاريخ..؟ إنكم سيدى القاضى تعلمون مدى صدق التاريخ، يدوّنه المؤرخون على هواهم.
القاضي: أتتهم المؤرخين بالتزييف.
أبو الطيب يتراجع منسحبا: ليس هذا ما قصدته بالتحديد، وإنما الأحداث

تجرى و يتناقلها الناس.. الرواة اقصد. فيحدثون بها المؤرخين وقد حذفوا هنا وأضافوا هناك، فالبشر ليسوا أنبياء معصومين وأنشد:

ومـــالــك تــقـــبــل زور الــكـــلام

وقـــدر الـــشــــهـــادة قـــدر الـــشـــهـــود

القاضي: أهذا ما قلته بعد أن أجهدك السجن، وكاد أن يقضى عليك؟

أبو الطيب متسائلا: هل لى أن أعرف ما قاله المؤرخون؟

القـاضى يعتدل في مقعده قليلا: يقولون إنك أوّلت حديث رسول الله صلى الله عـليه وسلم: «لا نبى بعدى» وادّعيت أن «لا» هى التى تختم النبوة وأن أسمك في السماء «لا».

أبـو الطيـب تـدوّى ضحكاته في القاعة التى سادها همهمة واستياء الحضور: كيف..؟! كيف أثبت بالنفى نفسى.. وذاتى؟ ثم هل أنا عن العر بية غريب اللسان؟ إننى لو ادعيت النبوة حقا لبحثت عن قوم عجم أقول فيهم هذا.

القـاضي: ومـاذا عن الأعراب الذين اتبعوك..؟ ولؤلؤ الذى طاردهم وقبـض عـليـك في زمـرة مـنـهم، وزج بكم جميعا في السجن حتى كدت تتلف..؟

أبـو الطيـب صمت واجما، واضعا رأسه بين يديه.. والقاضى ينظر في ساعتـه.. ثـم يـقـول تُـرفـع الجلسة ثم تعود للإنعقاد بعد ساعة.. و يقف القاضي ليغادر القاعة، بينما ينادى حاجبه: محكمـــة..

يخرج من خرج من الناس، و يبقى الباقون في انتظار، وأبو الطيب واجما خلف القضبان.

والمراقب عيناه تدور يمينا وشمالا.. يرصد بحواسه وعقله كل همسة هنا أو تعليق هناك، وتتمايل اذناه وسمعه مع المحامين الذين جعلوا يتبادلون النصوص القانونية التي تدين ابا الطيب.. والثغرات التي يمكن النفاذ من خلالها، والمراقب مازال مراقبا

[الجلسة الثانية]

اعتلى القاضى مقعده المرتفع، وكذلك مساعدوه، واحتشد الناس في أماكنهم.. و ينادى الحاجب: محكمـــة

القاضى: فُتحت الجلسة.. و ينادى على أبى الطيب.. أحمد بن الحسين

أبو الطيب: هأنذا ياسيدى

القاضى: يقلب في كومة من الاوراق بين يديه.. قائلا: بين يدى أوراق تقول أنك فتنت عددا من بنى كلب فتبعوك، ووضعت كلاما عارضت فيه القرآن، وأنك ادّعيت فيهم النبوة.

أبو الطيب: إن الأعراب سيدى القاضى يُفتنون بالشعر لا بالإدعاء..

القاضى: وضح قولك واقتصد..

أبو الطيب: إنهم يقبلون الشعر الحسن ولا يصدقون دعيا للنبوة.. حتى وإن كانوا قد اهملوا العبادات، ثم إنهم لم يصدقوا النبى نفسه صلى الله عليه وسلم وقد أتى لهم بالمعجزات والقرآن الحكيم، فما بالك تصدق أنهم يقبلون مدّعى النبوة.. فقط قبلونى شاعرا

القاضى: وبماذا تفسر عصيانهم الولاة.. بل وقتالهم

أبوالطيب: حدث هذا التمرد وذلك العصيان قبل أن أكون فيهم، وأيضا حينما كنت في السجن، فما لى شأن بذلك.

القاضى: لقد قُدتَهم في ثورة على الحكام.. اصحيح هذا..؟

أبو الطيب: نعم.. ثم نعم لقد كنّا نقاتل الظلم والإستعباد وهضم الحقوق كانوا ينعمون بخيرات البلاد، ويجبون الضرائب والمكوس بحَدّ السيف..

هل نسكت على الظلم؟
القاضى: وماذا عن قولك في معارضة القرآن؟
أبـو الـطـيـب: لـو كـنـت مـسيلمة الكذاب لبلغكم قولى، ولما اقتربت من الملوك والأمراء..
الـقاضي: ربما طمست كلماتك، أو أخفيتها يوم حرصت على جميع ديوانك بنفسك.
أبـو الطيب: لو قلت شيئا مثل ذلك لتناقلته الألسنة، خاصة الأعراب وهم الأكثر رواية والأقوى حفظا.
صمت برهة ثم قال: نعم أنا أخطأت ولكن السلطان قد عفا عنى.
القاضي: إذن تعترف بجرمك، وربما عفا عنك السلطان وأنت مذنب.
أبـو الطيب: حسبك سيدى القاضى أنا لم أدّع النبوة ولم أعارض القرآن، والا مـا كـان الـسـلـطـان لـيـعـفـو عنى.. فهل يعفو عن مرتد؟ وإلا فإنكم تـتـهـمـون السلطان إذ ليس بإمكانه العفو المطلق، فهو قد يعفو عن أمرٍ من أمور الحياة.. أقصد المشكلات والخلافات التى تحدث بين الناس، أما إذا كان الأمر يتعلق بالدين والنبوة فلا سلطان للسلطان عليه.
القاضى: كفاك مكرا ودهاءا فالكل عندنا أمام القضاء سواء..
أبو الطيب:

بـــيـــدى أيـــهـــا الأمير الأ ريـــب
لا لشيء إلا لأنـــــى غـــــريـــــب

أو لأم لهـــا إذا ذكـــرتـــنـــى

دمُ قـــلـــب في دمـــع عين يـــذوب

إن أكـــن قـــبـــل أن رأيـــتـــك

أخـطـأت فـإنـى على يـديـك أتـوب

عـائـبٌ عـابـنـى لـديـكـم ومـنـه

خـلـقـت في ذوى العـيـوب العـيـوب

القاضى: عمّ تتوب إذن

أبو الطيب: عائب عابنى لديكم

القاضى: ومن هو..؟

أبو الطيب: بعض التاريخ

القاضى: ترفع الجلسة على أن تعود للإنعقاد مرة أخرى.

والقـاعـة تـعـج بالحاضرين وجلبة وضجيج الصوت يملأ المكان.. وسحابة دخـان في سقف القاعة، وشيخ يسعل ومازال متمسكا بالتبغ بين اصابعه، وآخر اقتحم المكان يحمل مشروبات باردة، انهمك الناس يتهافتون عليها لتطفىء حرارة الجو.. وربما قيظ الاسباب التي اوردتهم المحاكم..

[الجلسة الثالثة]

القاضى يدخل.. والعضوان اليمين واليسار.. والمراقب وسط القاعة المكتظة بالحشد الكبير الذى حضر ليشاهد المحاكمة.. أبو الطيب لم يزل خلف القضبان شارد الذهن يعبث بأصابعه..

الحاجب ينادى: محكمة.. ثم يجلس الجميع

القاضى: أين المتهم.. احمد بن الحسين

أبو الطيب واقفا: نعم.. مازلت هنا

القاضي: بين يدى الآن مقالتك التى تدينك.. وأشار إلى كاتبه.. الكاتب يقف وقد أمسك في يمناه بورقة.. ثم قال:

إن أكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى
وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله
غريب كصالح في ثمود

القاضي: أتنكر ذلك..؟

أبو الطيب: كلا .. قلته

القاضى ينهر أبا الطيب غاضبا: هذه هى النبوة..

أبو الطيب: من قال ذلك..؟

القاضى: النص الصريح، ثم ابن جنى صديقك قال ذلك.

أبـو الـطيب: كلا.. إن ابن جنى لا يقول مثل هذا فهو أعلم بشعرى حتى منـى، وان كـان قـد قـالهـا حـقـا.. فللأسف تقول وأول فأساء إليّ وإلى التأو يل في آن واحد.

القاضى: أوّل لنا أنت.

أبـو الـطيب: قلته في قوم لم يطب مقامى بينهم فاعتدوا عليّ وعادونى ثم أخذ يقول:

ومـــقـــامـــى بـــأرض نـــخـــلـــة إلا

كـــمـــقـــام المـــسـيـح بين الـيـهـود

الـقـاضي: ألا قـاتـل الله الـكـبـر.. أمنحك فرصة أخيرة توثق فيها أوراقك ودفاعك.. وإلا.. و يهم يلملم أوراقه.

أبو الطيب: وقد بدت على وجهه علامات الحزن والشجن.. فأنشد:

وقـــيـــل عـــدوت على الـــعـــالمين

بين ولادى و بين الـــعـــقـــود(١)

فـــلا تـــســـمـــعـــن مـــن الـــكـــاشـحين

ولا تـــعـــبـــأن بمـــحـــك الـيـهـود(٢)

وكـــن فـــارقـــا بين دعـــوى أردت

ودعـوت فـعـلـت بـشـأوٍ بـعـيـد(٣)

١ ــ عدوت: من العدوان. والولاد: الولادة

٢ ــ الكاشح: العدو يضمر العداوة في كشحه. ومحك اليهود: عداوتهم

٣ ــ الشأو: الطلق والشوطظ.

وفي جــود كــفــيــك مــا جــدت لى

بنفسى ولو كنت أشقى ثمود(١)

القاضى يعود لمقعده ثانية بعد أن هم بمغادرته.. يفرك كفيه، ويخفى ابتسامة كست وجهه و يقول: هذا ردّك على قومك.. فما دفاعك عن اتهام التاريخ لك؟

وهنا ينبرى أحد الجالسين في الصف الأ ول.. يرتدى لباسا يقارب زى أبى الطيب.. يتحسس طريقه نحو المنصة.. إنه كفيف، همّ الحاجب لمساعدته في الوصول إلى المنصة.. حتى بلغها فعرّف القاضى بنفسه قال: أبو العلاء المعرّى

القاضى: هل تريد أن تقول شيئا.

أبو العلاء: أقول إذا رُجعَ إلى الحقائق فنُطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يُظهر الرجل بالقول تدينا، وإنما يجعل ذ لك تزيّنا يريد أن يصل به إلى ثناء أو عرض من أعراض الخالبة أم الفناء، ولعله قد ذهب به جماعة هم في الظاهر متعبدون، وفيما بطن هم ملحدون.

ولم يكد أبو العلاء ينتهى من كلامه حتى جاء صوت من آخر القاعة، إلتفت الجميع إلى الخلف.. الأنظار كلها على ذلك الشخص الواقف عند الباب.. قال: ابن جنىّ.. هل تأذن لى بالدخول سيدى

١ ــ أشقى ثمود: أراد به «قدارا» عاقر الناقة.

القاضى..

سرت همهمة بين الحضور، مفاجأة غير متوقعة..

ابن جنى: لدىّ شيء أريد قوله

القاضى: ماذا عندك ياابن جنى..؟ قُله

ابن جنى: لقد تقول خلق علىّ قول لم أقله في حق أبى الطيب، ربما بلغكم، ولكنى أقول أنه لقد وشى قوم بأبى الطيب عند السلطان، وهو في صباه وتكذبوا عليه، وقالوا للسلطان أنه قد انقاد لأ بى الطيب خلق كثير من العرب وقد عزم على أخذ بلدك حتى أوحشوه منه فأعتقله وضيق عليه.. تلكم هى الحقيقة كاملة.

القاضى: شكرا لكما على هذا التوضيح.. وعاد يسأل أبا الطيب: لم ترد بعد على اتهام التاريخ؟

أبو الطيب: صححوا التاريخ.. صححوا التاريخ

القاضى: إذن نتهم التاريخ بالكذب ونرميه وراء ظهورنا، ونعتد بقولك

أبو الطيب: بل هذه المرة سأقبل التاريخ.. وسأبحث فيه

القاضى: يندهش و ينظر متعجبا إلى أبى الطيب وتقلباته..!!

أبو الطيب: هل قال التاريخ أن من يدّعى النبوة يتراجع عن دعواه

القاضى: لا.. فمن ادعى النبوة بالتأكيد مجنون.. والمجنون لا يملك عقله في دعواه، ولا عقلا يثنيه عن جنونه

أبو الطيب: هذا ما أردت سيدى القاضى..

القاضى: كيف..؟
أبـو الـطـيـب: لو ادعيت النبوة لما ملكت التراجع عنها إن كنت مجنونا، أو على الأقـل أروج لدعواى سرا ان كنت عاقلا.. والقلم مرفوع عن المجنون اولا، وتـاريخكم الذي تدعون لم يذكر انني دعوت لشيء سرا.. ثم يصيح بصوت مهزوم.. ما ادعيت.. ما ادعيت.. أنصفونى.. واعدلاه.

يخـيـم الـصـمـت على القاعة.. يُطرق الجميع. بينما القاضى ينظر إلى الـعـضـو الأيمـن و يسر إلـيـه بكلمات، ثم يميل ناحية العضو الأ يسر الذى يـتـمـتـم بـكـلـمات للقاضى.. وأبو الطيب يقبض بيسراه على حلقه ورأسه مداه للخلف مغمض العينين..

القاضى: يوجه كلامه لأ بى الطيب: وماذا تريد..؟
أبو الطيب: ضعوا عن كاهلى هذا القول.. بهتانا وزورا

عـلا صـوت الجمهور بالإستحسان والرضا على كلمات أبى الطيب.. وسـاد هـرج ومـرج.. بـينما القاضى يقرع المنصة قائلا: إلتزموا الهدوء من فضلكم.

يـفـرك الـقـاضى جبينه و يعلو وجهه غموض، يجمع الأ وراق.. أوراق الـقـضـية يضغط عليها بشدة.. يرمق الحاضرين بنظرات حادة.. ثم يقف يرفع يمناه و بها الأ وراق.. و يصيح: هذه هى اتهاماتكم للرجل.. و يلقى بالأ وراق جميعا لتتناثر بين أقدام الحاضرين.. و يقول: إنى ألقيها في وجه التاريخ لا في وجوهكم.. يتزاحم الجمع لإلتقاط الأ وراق المتناثرة.. ورقة

تتطاير.. ويحملها الهواء لتقع أمام المراقب.. قرأ فيها:

فـإن الجـرح يـنـفـر بـعـد حين
إذا كـان الـبـنـاء على فـسـاد

فيهمس في نفسه بكلمات.. و يقلب الورقة فيقرأ:

فـمـا خـاشـيـك للـتـكـذيـب راجٍ
ولا راجـيـك للـتـخـيـيـب خـاش

فطوى الورقة ووضعها في جيبه.. ثم طرقت مسامعه كلمات القاضى وهو يهم بالقيام من مقعده قائلا: إننا تركنا الحكم النهائى في مسألة إدّعاء النبوة هذه للتاريخ ليقول فيها كلمته، أما حكمنا نحن سيكون في أمر آخر.. وستعود المحكمة للإنعقاد بعد الاستراحة..

ينتشر الجمهور في اتجاهات مختلفة.. وتخلو القاعة من الجميع إلا صدى صوت الحاجب يتردد: رفعت الجلسة.. و يبقى المراقب..!!

جمعت أوراقى وأخفيتها خشية أن يطلع عليها أحد، ولم أنس أن أدس بينها تلك الورقة.

[الجلسة الرابعة]

يدخل القاضى القاعة ليعتلى المنصة للمرة الرابعة، بينما الحضور مازالوا يتوافدون والمراقب لم يترك مكانه، والعضوان عن يمين و يسار القاضى.. وهناك الكاتب ثم أبو الطيب خلف القضبان والشرطى ممسكا بسلاحه.

الحاجب: فتحت الجلسة

القاضى: لقد انتهينا في الجلسات الثلاث السابقة من مناقشة الاتهامات الموجهة إليك.. ولكن ممثل الإدعاء لديه ما يقوله..: تفضل

ممثل الادعاء: أرجو من عدالة المحكمة أن تضع في حسبانها هذا الإتهام الخطير، وإن كان في جعبتى القول الكثير، إذ لو ثبت على المدعو احمد بن الحسين هذا الاتهام لأضطررنا لشطب الكثير من ديوانه وخاصة ما يتعلق بغرض الحكمة.

وهنا حدث هرج كبير في القاعة وتساءل الحاضرون بأصوات عالية فيما بينهم

القاضى يطرق على المنصة: الهدوء لو سمحتم وإلا سأخلى القاعة تماما، ثم وجه حديثه لممثل الادعاء: أكمل

ممثل الإدعاء: اننى أحمل لهيئة المحكمة الموقرة أبياتا من شعر أبى الطيب في الحكمة.. وأحمل أيضا الأصل الذى سُرِق منه.

وساد القاعة صمت مطبق.. لمعت العيون الجاحظة تمعن النظر في أبى الطيب في حين أنه يركز انتباهه بشدة لحديث ممثل الإدعاء

أبو الطيب: هل يسمح لى سيدى القاضى بالإطلاع على تلك المزاعم؟

القاضى: هل تلا علينا ممثل الإدعاء ما عنده

ممثل الإدعاء: سأبدأ بعرض قول أبى الطيب ثم أذكر الأصل.. وقال:

وشبه الشيء منجذب إليه
وأشبهنا بدنيانا الطغام

وأردف: هذا شعر أبى الطيب.. و يسأله: أليس كذلك؟

أبو الطيب: نعم.. هو لى

ممثل الإدعاء: والآتى هو لأ رسطوطاليس.. الأصل الذى سُرِق منه. ثم يقول: «الأشكال لاحقة بأشكالها، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها».

القاضى: عليك أن تتلو أقوال أرسطو، ثم ما تدعى أنه مسروق منها من أبيات أحمد بن الحسين.. ولا توجه له أىّ سؤال

ممثل الإدعاء: لكم ذلك سيدى القاضى.. وأخذ يلقى ما عنده قائلا:

قال أرسطو: الفرق بين الحلم والعجز، أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة، والعجز لا يكون إلا عن ضعف، فليس للعاجز أن يتسمى باسم الحليم.

وقال أبو الطيب:

كل حلم أتى بغير إقتدار
حجة لاجىء إليها اللئام

قال أرسطو: على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء، فالسالم العقل يرى الأشياء على قدر حقائقها، والنفس اللئيمة ترى الأشياء بطبعها.

وقال أبو الطيب:

ومـن يـك ذا فـم مـريـض
يجـد مـرا بـه المـاء الـزلالا

قال أرسطو: على قدر الهمم تكون الهموم

وقال أبو الطيب:

أفـاضـل الـنـاس أغراض لذا الزمن
يخـلـو من الهم أخلاهم من الفطن

قال أرسطو: النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام

وقال أبو الطيب:

ومـن يـهـن يـسـهـل الهـوان عـلـيـه
مـا لجـرح بمـيـت إيـلام

وقال أرسطو: الزيادة في الحد نقص في المحدود

وقال أبو الطيب:

مـتـى ازددت مـن بـعـد الـتـنـاهى
فـقـد وقـع انـتـقـاصى في ازديـادى

وقال أرسطو: كره ما لابد من كونه عجز في صحة العقل

وقال أبو الطيب:

نحن بنو الموتى فما بالنا

نعاف ما لابد من شربه

وأردف ممثل الإدعاء قائلا: ذلكم ما قاله فيلسوف الاغريق أرسطو طاليس منذ آلاف السنين، ثم ما سرقه منه أبو الطيب مدعيا الحكمة في شعره.

القاضي: هل هذه الأ بيات لك ياأبا الطيب

أبو الطيب: نعم كلها لى، ولكن سيدى القاضى أنا لم آخذ عن أرسطو هذا كما أدّعى علىّ ممثل الإدعاء، ولك أن تقرأ ديوانى كاملا لتعلم مدى شاعريتى، ثم ان هذه ليست كل ما قلت في الحكمة بل هى جزىء من ألف.

وهنا يبرز أحد الحاضرين يطلب من القاضى أن يسمح له بالكلام.

القاضى: تفضل ياأحمد بك أمين

أحمد أمين: إن كان قد وصل إلى أبى الطيب قليل من حكم اليونان ونظمها فإن أكثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه لا الفلسفة اليونانية وحكمها، وذلك لأن الحِكَم ليست وقفا على الفلاسفة ولا على من تبحروا في العلوم والمعارف، إنما هى قدر مشاع بين الناس يستطيعها العامة كما يستطيعها الخاصة.

ونحن نرى فيما بيننا أن بعض العامة ومن لم يأخذوا بحظ من علم قد يستطيعون من ضرب الأمثال والنطق بالحكم الصائبة ما لا يستطيعه

الفيلسوف والمتبحر في العلوم، وهذا الذى بين أيدينا من أمثال إنما هونتاج عامة الشعب أكثر مما هونتاج الفلاسفة.

واستطرد قائلا: وكلنا يرى بعض عجائز النساء ممن لم تقرأ في كتاب أو تخط بيمينها حرفا تنطق بالحكمة تلو الحكمة فيقف أمامها الفيلسوف حائرا دهشا يعجز عن مثلها ويحار في تفسيرها، ومرجع ذلك الى ينبوعين وهما: التجربة والإلهام فإذا إجتمعا في امرىء تفجرت منه الحكمة ولو لم يتعلم و يتفلسف، فكيف إذا اجتمعا لامرىء كأبى الطيب ملىء قلبه شعورا، وملئت حياته تجارب وكان أمير البيان، وملك الفصاحة..؟؟

أبو الطيب: أخبرهم بالله عليك قدر الذى يدّعون عليه، بالأمس كنت أجالس الملوك ذوى السلطان والآن تجعلوننى خلف القضبان..!!

القاضى يشير الى أبى الطيب بالسكوت و يقول: أكمل ياأحمد بك أمين، وأوجز من فضلك.

أحمد أمين: نحن إذا إلتمسنا لشاعرنا مثالا في الحكمة فلسنا نجده في أفلاطون وأرسطو وأبيقور، وإنما نجده في زهير بن أبى سلمى وقد نطق في الجاهلية بالحكم الرائعة مما دلته عليه تجاربه واوحى اليه الهامه، كما نجده في شعر أبى العتاهية وقد ملأ الدنيا حكما وأمثالا خالدة على مدى الدهر، وكل ما بين أبى الطيب وهؤلاء الحكماء من فروق يرجع إلى عدة أشياء: المحيط الذى يحيط بكل شاعر، وقدرة نفس الشاعر على تشرّب محيطة ثم القدرة البيانية على أداء مشاعره

واستطرد مفسرا: لقد ألم زهير بن أبى سلمى من الحرب وو يلا تها فشعر فيها ونطق بالحكم الرائعة يصف شرورها ومصائبها، وفشل أبو العتاهية في الحياة فزهد فيها وملك الزهد عليه نفسه فملأ به ديوانه.

وكان لأ بى الطيب موقف غير هذين فأختلفت حكمه عنهما وان نبعت من منبعها.

إن دليلنا على ذلك أن أبا الطيب ـ فيما نعلم ـ لم يثقف ثقافة فلسفية إنما تثقف ثقافة عر بية خالصة، قرأ بعض دواو ين الشعراء ولقى كثيرا من علماء الأدب واللغة كالزجاج والأخفش وابن السراج وابن دريد.. وغيرهم، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناحيها.

وعند هذه العبارة اومأ ابن جنى برأسه موافقا على قول أحمد أمين، ثم مال ناحية جاره وأسر إليه ببعض كلمات، بينما أخرج أحمد أمين منديلا من جيبه وراح يجفف ما تصبب على جبينه من عرق..

وأضاف احمد أمين قائلا: وما لنا وهذا كله، فإننا لو رجعنا إلى حكمه لوجدناها منطبقة تمام الإنطباق على محيطه ونفسه وليس فيها أثر من تقليد ولاشية من تصنع، فهو ينظم ما يجول في نفسه وما دلته عليه تجار به لا ما نُقِل إليه من حكم غيره إلا في القليل النادر.

وقف أبو الطيب قائلا: لا فض فوك، أحسنت ثم أحسنت وإنك لقرأت ما فى نفسى وأردت أن أقوله.. ثم التفت ناحية القاضى قائلا:

حسبى ما قاله عنى الأستاذ أحمد أمين فإنه والله لأمين حقا.

القاضى يطرق على المنصة.. ويميل يمينا ثم يسار يحاور العضو ين.. ينصت الجميع في انتظار ما سيقوله القاضى الذى يبدأ في تلاوة نص الحكم الصادر في حق أبى الطيب قائلا:

حكمت المحكمة بعد طول مداولات ومشاورات و بعد سماع أقوال الشهود والدفاع، و بعد الاطلاع على مذكرة الادعاء، حضوريا ببراءة أحمد بن الحسين بن محمد الكوفى الكندى المكنى بأبى الطيب من كل التهم الموجهة اليه فيما يختص بالسرقات الأدبية في مجال الحكمة.. رفعت الجلسة.

يحدث هرج ومرج.. يخرج القاضى.. و يبدأ الجميع في مغادرة القاعة وقد كست وجوههم علامات الفرح والسرور.

قـاطـعـنـي ارتفاع صوت قائد الطائرة يعلن للمسافرين الكرام.. نحن نـطير الآن على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر.. و يضيف بعض المـعـلومات عن الطقس.. درجة الحرارة.. نسبة الرطوبة.. إلخ. من هذه المـعـلومـات.. ثـم يتمنى لنا السلامة الوصول كما تمناها في أول الرحلة، و يـعـلـن عـن الخدمات التى يقدمونها للركاب. اذن اقتربت الرحلة من النهاية.

المسـافـرون.. يـنـظـر بـعـضـهـم في وجـه الـبـعض الآخر.. يتبادلون الابتسامات.. والتحية.. والكلمات، وأخذ بعضهم يعطى الآخر بطاقات الـتـعـارف.. عـلـيـهـا الاسم.. العنوان.. الوظيفة.. أرقام الهواتف، فمن الفوائد الجمة للسفر هذه العلاقات العامة بين مختلف الشعوب.

و بـقى البعض الآخر يتفقد ما بقى من أغراض.. و يعتدل البعض في مـقـعـده، وهـذا يندّى وجهه بمنديل معطر من مقتنيات الطائرة وذاك يفرك عـيـنـيـه طـاردا النعاس.. وهذه تعدّل ملابس طفلها وأخرى أخرجت من حـقـيبة يدها مرآة وأخذت تهندم ثيابها.. وتسوى شعرها.. وتصلح زينتها لتبدو وكأنها عروس ستزف إلى هذا الذى لم يزل غارقا في النوم في المقعد المـلاصـق لهـا.. ومـسافرة أخرى تنتقل بنظرات خاطفة بين المسافرين من خـلـف نـظـارة تـدلـت قـلـيـلا على أنـف صـغير كـأنـهـا تبحث عن شيء فقدته..!! بينما الثرثارة المتصابية خلفى هجمت على جارها تهنئه بسلامة الـوصـول.. وأنـه يمـكـنـه الاتـصال بها في تلك الهواتف وشرعت تملى عليه أرقاما كثيرة.

حملت مكبرات الصوت إلى آذاننا تهنئة الكابتن عبد الله السمحان ومساعده محمد العنزي وطاقم الطائرة.. نحن الآن على بُعد عشرة دقائق من مطار كيندي الدولى.

عمت الطائرة حركة كثيفة.. فالكل يعود يستقر في مقعده في إنتظار تعليمات قائد الطائرة.. تلك لحظات ترقب وإنتظار.. ورجاء.. أمنيات تحملها القلوب.. وآمال يتحفز الطامحون لتحقيقها.

الشيخ جارى بدأ يستيقظ.. فهنأته بسلامة الوصول.. ثم ألقيت نظرة على حقيبتى.. واسترخيت في وحملتني الافكار بعيدا.. ثم بدأت أفقد الإحساس بجو الطائرة.. وإذا بطيف يقبل نحوى.. لم أتبينه بعد.. يقترب شيئا فشيئا.. و يزداد وضوحا كلما اقترب.. إنه هو.. نعم هو.. إنه أبو الطيب..

كيف يكون ذلك ثانية..؟ تساءلت من.. أبو الطيب؟!

فرد قائلا: نعم

فتساءلت ثانية وكيف..؟!

أجابنى بقوله: لا أعلم.. ولكن هأنذا..!

قلت: أين ذهبت إذن.. هل قضيت حاجة لك..؟

فرد بقوله: ألم أقل لك ليس لى حاجة أقضيها.. ألم تعلم بعد؟

قلت: بلى.. ولكن لم تركتنى؟ هل بدا منى ما يؤذيك؟

قال: الكثير

قلت: ولم عدت إذن؟
قال: ألا تسرك عودتى.. اذهب إذن من حيث أتيت
فأسرعت قائلا: لا.. لا لقد سرتنى عودتك كثيرا
قال: إذن أتيتك مودّعا.. وأنشد

إذا الـتـوديـع أعـرض قـال قـلـبـى
عـلـيـك الـصـمـت لا صـاحـب فـاكـا

ثم أشار بسبّابته الى نفسه قائلا:

ومـــا أنـــا غير ســـهـــم في هـــواء
يـعـود ولـم يجـد فـيـه إمـتـسـاكـا

فقلت: قرأتُك لا تفارق الأصدقاء والأصحاب إلا على ألم وصبر.. ولكنك تأتى على قدر وتفارقنى عليه وما هى إلا الذكرى الطيبة.. ياأبا الطيب.. وأنشدت:

وأمـــا المـــوت فـقـد غـيّـبـك عـنـا
ولـــكـــنـــك إلى قـــلـــبـــى قـــريـــب

قال وهو يشير إلى حقيبتى: ما بها..؟
اضطربت قليلا.. إنها الحقيبة التى بها أوراق المحاكمة.. تمالكت نفسى.. وقلت: إن بها أوراقى الخاصة.. الشخصية.
فأضاف: الخاصة.. الخاصة بك وحدك
فكست وجهى دهشة وقلت : نعم
ففاجأنى بقوله: وما بال تلك الورقة التى سقطت عليك..؟

قلت: أى ورقة تقصد..؟!
قال: عجبا لك أيها المراقب..!!
فأردفت متسائلا: ويحك أين كنت إذن؟ وكيف عرفت بأمر الورقة؟
قال: اسمع ياصاحبى.. ان الطيف.. طيف، إنه لا يأتى سوى مرة واحدة فيلازم صاحبه لفترة ثم يفارقه إلى غير رجعة، وأنا ما فارقتك منذ اللحظة الأ ولى، ولكنى كنت أتجول في مركبتكم العجيبة.. ولسوف أتركك بلا رجعة.

وقطع صوت قائد الطائرة حديثنا ليعلن نهاية الرحلة وسلامة الوصول وأننا الآن فوق مطار كينيدي.. وعلينا ربط الأحزمة جيدا.

سنهبط الآن.. هبطت الطائرة بسلامة الله، ولم نشعر بذلك اللهم إلا أزيز المحرك وانقباض العجلات.. قائد بارع.

أبو الطيب يجذبنى من ذراعى.. يستحثنى على النهوض قائلا: انظر حولك الجميع هرعوا للنزول، وما بالك قابعا في مكانك.. هيا
قلت: أتلازمنى
فرد قائلا: لقد فعلت

ونظرت من النافذة إلى أرض المطار المضيئة والطائرات جاثمة بعضها بجوار بعض، هذه - إذن - هى أرض الواقع التى سيفارقنى عندها أبو الطيب، والتى كنت أتمنى الوصول اليها في لمح البصر.. أجدنى الآن وقد تبدّل الحال وكأننى لا أريد الوصول إليها أبدا لأظل سابحا في السماء مع

طيف أبى الطيب.. ولكن دوام الحال من المحال.

فعدت قائلا: صاحبنى بر بك

قال: كفى.. وأنشد:

مـاذا الـوداعُ وادعَ الـوامـق الـكـمـد

هـذا الـوداعُ وداعَ الـروح للجسـد

إذا الـسـحـاب زفتـه الـريـح مـرتـفـعـا

فـلا عـدا الـرملـة الـبـيـضـاء مـن بـلـد

وعقب قائلا: لقد أعملت سيفى في الفرنجة وقتلت فيهم الكثير في حروبى مع سيف الدولة، ولم يظفروا بى ولا نالوا منى، فهل تمكنهم الآن منى؟ قلت: لا.. ولم أكمل فقد غاب عن خاطرى عندما وقعت عيناى على أرض الواقع، وأفقت على صوت المضيفة تتدخل عندما وجدتنى شاردا

فقالت: هل من مساعدة

قلت: لا.. شكرا

وأضافت: هل هذه أول مرة تسافر فيها؟

قلت: لا ليست أول مرة.. لماذا؟

قالت: أراك شارد الذهن

فقلت: نعم.. نعم إنها أول مرة بصحبة أبى الطيب.

وعقبت متساءلة: نعم. ماذا تقول؟ قلت: كلا.. لا شيء.. لا شيء شكراً

وترجلت سلم الطائرة خارجا الى صالة إستقبال المسافرين، وتدور في خلدى كلمات ابن دينار في أبى الطيب:

رب القريض إليك الحل والرحل
ضاقت إلى العلم إلا نحوك السبل
تضاءل الشعراء اليوم عند فتى
صعاب كل قريض عنده ذلل

خاتمـــة

تـلـكم قصتى مع أبى الطيب أو طيفه إن شئتم.. ولم يدر بخلدى من قبـل أن أسـجل حكاية أو أرصد تجر بة.. ولكن هذه المرة لم أجد بُداً من كتابتها، والحق أن غر يبها هو الذى دفعنى إلى ذلك.. وهى ـ والحق أقول ـ حقيقة و واقع عشته في إحدى رحلا تى إلى أمر يكا.

مـا بين الخيـال.. وتـدخـل الطـيـف كانت هذه القصة، ولا أخفى عـلـيـكـم أن حالة غر يبة هى مز يج من الدهشة والسرور كانت تعتر ينى، بل وتلازمنى طوال الرحلة.

ومـا كـانـت هـذه الحادثة لتقع ـ في ظنى ـ سوى لحبى الجارف لحكم أبـى الطيب وشعره الذى يأخذ مكانة كبيرة في نفس. وقد وافق طيفه هذا الهـوى في نـفـس.. ولأمـر كان ولا يزال عندى غامضا ومجهولا.. ولكننى على أيـة حال أنست كثيرا بصبحة هذا الشاعر العظيم.. الذى قال فيه أبو القاسم المظفر:

مـا رأى الـنـاس ثـانـى المـتـنـبـى
أى ثـان يـرى لـبـكـر الـزمـان
كـان مـن نـفـسـه الـكـبـيـرة في جـدش
وفي كـبـريـاء ذى سـلـطـان
هـو في شـعـره نـبـى ولـكـن
ظـهـرت مـعـجـزاتـه في المـعـان

وحينما عدت إلى أرض الوطن الطاهرة بحمد الله، والقصة مازالت تنازعني حتى وضعتها بين أيديكم.. لعلها تحظى بإعجابكم.

فشكرا لكم.. وشكرا لأحمد بن الحسين.. الشاعر الفذ، والفارس المحنك الذى لا تلين له قناة، وشكرا لأحمد الكوفى السياسى.. ملازم أهل السياسة وشكراً لأحمد الكندى مادحا.. أو هاجيا.. أو راثيا.

شكراً لأ بى الطيب وطيفه مقبلا أو مدبرا

شكراً لمن جعلني ألج مجال الكتابة فكانت عنه القطفة الأ ولى

شكراً أبا الطيب

المــراجــع

١ ــ أبي الطيب المتنبى (حياته وشعره).
مجموعة مقالات لكبار الكتاب منهم: العقاد ـ محمد حسين هيكل ـ زكى مبـارك ـ خليل مطران ـ أحمد أمين ـ على الجارم ـ أحمد محرم.. وغيرهم. الناشر المكتبة الحديثة للطباعة والنشر. القاهرة.

٢ ــ أبو فراس الحمداني (حياته وشعره).
د. عبد الجليل حسن عبد المهدي. مكتبة الأقصى. عمّان.

٣ ــ أبو فراس الحمداني (حياته وشعره).
سلسلة الموسوع في الأدب العربي. دار الثقافة. بيروت.

٤ ــ الإبابة عن سرقات المتنبي.
تـألـيـف أبـى سـعـد محـمد بن أحمد العميدى. تحقيق وشرح ابراهيم الدسوقى البساطى. دار المعارف بمصر.

٥ ــ اتجاهات الشعر العربى المعاصر.
د. احسان عباس. سلسلة عالم المعرفة. الكويت.

٦ ــ الحرب في شعر المتنبي.
د. محمود حسن عبد ربه. دار الشروق. جدة.

٧ ــ ديوان أبى الطيب المتنبى.
بشرح أبى البقاء العكبرى. دار المعرفة. بيروت.

٨ ــ ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام.
عبد الوهاب عزام.

٩ ـ رسالة الغفران لأ بى العلاء المعرى.

شرح وتحقيق د. على شلق. دار القلم ببيروت.

١٠ـ المتنبي شاعر الشخصية القو ية.

جورج عبده معتوق. دار الكتاب اللبنانى. بيروت.

١١ـ المتنبي (شرح ديوانه ونبذه عن حياته).

تأليف إسماعيل اليوسف.

١٢ـ الأ زهار النادية في اشعار البادية.

مكتبة المعارف. الطائف.

١٣ـ ديوان السامرى والهجيني.

اعداد محمد بن عبد الله الحمدان.

١٤ـ ديوان بن سبيل.

جمع محمد بن عبد العزيز بن سبيل.

وكذلك دواو ين الشعراء المترجمة اسمائهم بالكتاب.

الفهرس

الصواب والخطأ

الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٩	الثاني	لسؤال	لشوال
١٤	الثاني عشر	يعتورنى	يعترينى
١٧	الرابع	الحكنة	الحنكة
١٧	السادس	ذكرها	ذكراه
٢٠	الثامن	التوضيحية	التوضحية
٢٣	الثالث عشر	خالها	أخالها
٢٥	الاول	أمر	أمراً
٢٥	التاسع	نفس	نفسي
٢٥	الثامن عشر	النفس	النفسي
٢٩	الحادي عشر	وسعها	وسعهما
٣٠	الثاني	أن	إن
٣٢	الخامس	لكنه	لكنه
٣٥	الثالث عشر	تزوب	تذوب
٣٦	الثاني عشر	درب ...	درب عتيق
٣٧	الثامن عشر	أصبح	أصبح
٣٨	الثامن	تحيا	تحياه
٤٢	الثامن عشر	مديثه	مدينه
٤٢	الثامن عشر	نقى	نفى
٤٤	السادس	غزير	غرير
٤٥	السابع	وأبيتَ	وأبيتَ
٥٠	التاسع عشر	قبيلة	لقبيلة
٥١	الحادى عشر	قولهم	قومهم
٥٢	الرابع عشر	نفس بنفس	نفسي بنفسي
٦١	التاسع	ناص	ناض
٦١	الثامن عشر	بعد	يعد
٦٢	الاول	غزيم	غريم
٦٣	العاشر	وارد بغيته	وارد ما بغيته
٦٥	الخامس	رد	لبس
٦٥	التاسع	المستحانى	المسنحانى
٦٥	العاشر	بالاخيار	يالاخيار

الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٦٦	الثامن عشر	دفاع	رفاع
٦٧	السادس عشر	حسنائه معاكسات	حسنائه من معاكسات
٦٨	الثاني عشر	شافنى	شاقنى
٦٨	السابع عشر	باقف	ياقف
٦٩	السابع	خض	خص
٦٩	التاسع	العذارى	العزارى
٦٩	العاشر	مذاقك	فراقك
٦٩	العاشر	مزاقه	فراقه
٦٩	الثاني عشر	رمستى	رمستن
٧٠	الثاني	مـَحَل	مُمحل
٧٠	التاسع	سنانى	حجاجي
٧١	الحادى عشر	تضغم	تدغم
٧٧	الثاني عشر	حقيق	حقيقة
٨٢	الثامن عشر	ضريت	ضر بت
٨٧	الرابع	قو ياً	قوى
٨٧	الخامس	مازالت	مازلت
٨٧	السادس	أخفاقها	أخفافها
٩١	الخامس عشر	تـ ـد	تريد
١٠٣	الثامن	لا تريق	إلا تريق
١٠٥	التاسع	إعطنى	أعطنى
١١٠	الثالث	أنني	إنني
١١٣	الثاني	مطنبور	وطنبور
١١٦	العاشر	مريثته	مرثيته
١١٨	التاسع	به بما	بما
١٢١	السادس عشر	للدهر	لا الدهر
١٢٢	الثامن عشر	الصائغ	الصائح
١٢٣	الخامس عشر	بطشت	بطش
١٢٨	الرابع	المجدا	المجد
١٣٤	السابع	عذب	عذبة
١٣٤	الرابع عشر	الزرايا	الرزايا
١٣٤	الخامس عشر	وهأن	وها أنا
١٤٠	الثالث	اسوء	اسوأ

الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٤٢	التاسع عشر	من	من
١٤٨	الثاني عشر	مددت إلى	مددت يدى إلى
١٦٠	العشرون	والشوطظ	السبق
١٦١	الرابع عشر	الخالبه	الخاليه
١٧٢	الرابع	السلامة	سلامة
١٧٢	الثامن عشر	هجّمت	هجمت
١٧٣	السابع	يستيقيظ	يستيقظ
١٧٣	الثامن	في ...	في المقعد
١٧٤	السادس	صاحب	صاحبت
١٧٨	التاسع	في نفس	في نفسي
١٧٨	العاشر	الهوى في نفس	الهوى في نفسي
١٧٨	الحادى عشر	بصبحة	بصحبة